فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

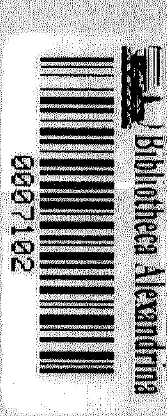
٢

الرثاء

بقلم

الدكتور شوقي ضيف





دار المعارف



الرِّثاء



فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٢

الرثاء

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الرثاء من الموضوعات البارزة فى شعرنا ، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة ، وهو بكاء يتعمق فى القدم منذ وُجِدَ الإنسان ، ووَجَدَ أمامه هذا المصير المحزن : مصير الموت والفناء الذى لا بد أن يصير إليه ، فيصبح أثراً بعد عين ، وكأن لم يكن شيئا مذكورا .

ولكل أمة مراثيها ، والأمة العربية من الأمم التى تحتفظ بتُراث ضخم من المراثى ، وهى تأخذ عندها ألواناً ثلاثة ، هى الندب والتأبين والعزاء . أما الندب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ويتفجع ، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوّب إلى قلبه ، فقد أصابه القدر فى ابنه أو فى أبيه أو فى أخيه ، وهو يترنح من هول الإصابة ترنح الذبيح ، فيبكى بالدموع الغزار ، وينظم الأشعار يبث فيها لوعة قلبه وحرقته . وقد ينظر فيرى الموت مطلا نُصْب عينيه ، وهو ينحدر راغماً إلى حفرته ، ولا ناصر له ولا معين ، ويصيح ولا ينفعه صياحه ، ففَمُ الهاوية يقترب منه ويوشك أن يلتقمه ، فيبكى ويلحّن بكاءه على قيثارة شعره تلحيناً مشجياً كله آلام وحسرات .

والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضا من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم ، ومراثى الشيعة من خير الأمثلة التى تصور ذلك ، إذ نجدهم يرسلون الدمع مدراراً كأنه لا يريد أن يجف ، وتسيل كلماتهم وأشعارهم المحزونة ، وكأنها تسيل من جــروح لا ترقأ فى القلوب والأفئدة . ومثل مراثى الشيعة مراثى الدول ومراثى الأوطان حين تسقط مهيضةَ

الجناح فى يد الأعداء ، فينوح عليها الشعراء مصورين محنتها الكبرى وكارثتها العظمى .

وليس التأبين نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو ، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص ، إذ يَخِرّ نجم لامع من سماء المجتمع ، فيُشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية ، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه . ومن هنا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعى ، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته فى هذا الفرد المهمّ من أفرادها ، ولذلك يسجل فضائله ويلحّ فى هذا التسجيل وكأنه يريد أن يحفرها فى ذاكرة التاريخ حفراً حتى لا تُنْسَى على مر الزمن .

والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين ، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التى هو بصددها إلى التفكير فى حقيقة الموت والحياة . وقد ينتهى به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة ، فإذا بنا نجوب معه فى فلسفة الوجود والعدم والخلود . ومردُّ هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم . عبارة يرددها الشاعر الجاهلى ويحللها الشاعر العباسى ، وما يزال الشعراء يحلّلون فيها متحدثين عن الخلود أو عن الفناء .

وتلك هى ألوان الرثاء فى شعرنا حاولنا أن نصورها وأن نضم بدياتها إلى نهاياتها فى خط طويل من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث . ولم نعرض ذلك فى تفصيل ، وإنما عرضناه عرضاً مختصراً بقدر ما تسمح به حلقة قصيرة فى هذه السلسلة التى تتحدث فى إيجاز عن فنون شعرنا الغنائى ، والله الهادى إلى التوفيق .

القاهرة فى ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٥

شوقى ضيف

تمهيد

١

الرثاء فى أدبنا العربى

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلى ، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى ، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبّنين لهم مُثْنين على خصالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير فى مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت ، وأن ذلك مصيرٌ محتوم .

والصور التى بين أيدينا من هذا الرثاء صور راقية ، إذ نراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم ، ومثل هذا التعبير تسبقه مراتب كثيرة من تعبيرات ساذجة عن الموت والموتى . ولكن هذه التعبيرات لا نجدها فى الشعر الجاهلى ، لأنه كان قد فارق المراحل الأولى ، وانتهى إلى مرحلة فنية راقية .

ولا نرتاب فى أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سحرا حتى يطمئن الميت فى مرقده ، ولا تصيب روحه الأحياءَ من ورائه بشرٍّ ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن ، وما زال حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن قِبَل الموتى ، ومحاولة ذكراهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التى ماتت بموتهم ، مع التفكير فى القدَر وقصور الناس أمامه ، وعبثه بهم ولَعِبه بحياتهم وموتهم .

وقد يكون من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقْيال والأذْواء فى اليمن والأمراء فى الحيرة وعند الغساسنة فى الشـــام ، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكراهم وتمجيداً لأعمالهم ، وكأنّ هذه هى الصورة الأولى للتأبين والإشادة بفضائل الميت ، على أنها صورة ساذجة . أما الصورة الجاهلية للتأبين فصورة معقدة ، لا بما فيها من طول فحسب ، بل بما فيها

أيضاً من وسائل فنية كثيرة ، إذ نرى شعراء الرثاء يهتمون بقوالب رثائهم وصيغه وينوعونها تنويعاً واسعاً ، كما نجدهم يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم ، مع العناية التامة بموسيقاهم وأوزانهم والملاءمة بين أنغامهم وشعور الحزن الذى يتعمق قلوبهم وأفئدتهم .

وكان يساهم فى هذا الفن النساءُ والرجال ، بل ربما كان للنساء الحظ الأوفر من القيام عليه ، إذ كنَّ هن اللائى يَقُمْنَ على ندب الميت أياماً ، بل ربما امتد قيامهن عليه سنوات ، وكنَّ يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود أحياناً . وقد يقمن بذلك فى مجالس القبيلة وعلى القبور وفى المواسم العظام كموسم عُكاظ .

وطبيعى أن يتفوق النساء على الرجال فى ندب الموتى والنواح عليهم ، لأن المرأة أدق حسا وأرق شعورا ، وأيضا فإن حياة الرجال فى العصر الجاهلى كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة ، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذَرْف الدموع كالنساء ، بل لقد ذهبوا يظهرون التجلّد والصبر على من يموت منهم ، يقول عمرو بن مَعْد يكرب :

كم من أخٍ لى حازمٍ بوّأْتُه بيدىَّ لَحْدَا
أعرضتُ عن تذكارِهِ وخُلِقْتُ يوم خلقت جَلْدَا

على أن الرجال لم يكونوا جميعاً مثل ابن معد يكرب ، فوراءه كثيرون كانوا يندبون وينوحون ، وخاصة على أبنائهم وأفلاذ أكبادهم .

ونَدْبُ الموتى والنواح عليهم هو الصورة الأولى فى الرثاء الجاهلى . ونجد بجانب هذه الصورة صورة ثانية من تأبين الميت وعَدّ فضائله والثناء على خصاله والإشادة بصفاته . وتكثر هذه الصورة فى تأبين الأصدقاء والأشراف ، بل قد نجدها فى رثاء الإخوة . وربما كان السبب فى ظهورها ثم شيوعها أن كثيراً ممن كانوا يرثونهم كانوا يُقْتَلون فى حروبهم الدائرة ، فأرادوا أن يبينوا عِظم المصيبة والخسارة بفقدهم . وترافق هاتين الصورتين صورة ثالثة من العزاء والصبر

على نوائب الدهر وحِدثانه ، فالدنيا دار فراق لا دار خلود وبقاء ، وكل نفس فيها ذائقةُ الموت ، فالموت حوض يرده الجميع ، وليس أمام الناس إلا الاستسلام للأقدار وما يأتى به القضاء .

ولما انتهت دولة المناذرة فى الحيرة رثوها ، واستخرجوا منها العِبَر والعظات على أن كل ما فى الدنيا زائل وأن البكاء لا يردّ هالكاهالك ولا ميتا مات . فالأقدار بيدها كِنانتها وقوسها ، ولا تزال ترمى بالسهام الأفرادَ والجماعات والقبائل والدولات .

وهذه الصور الجاهلية للرثاء استمرت فى أدبنا العربى مع عصوره المختلفة ، تارة تنمو وتارة تتطور ، تحت تأثير نموّ العقل العربى من جهة ، وتطور حياة العرب واختلاف الأحداث عليها من جهة ثانية ، ولكنها فى جماتها ترتد إلى هذه الصُّوَر الجاهلية ، وتُشتَقّ منها كما يشتق الفرع من أصوله .

٢

فى الآداب العالمية

الرثاء يقترن بالموت ، وليس فى العالم أمة لم تعرف الرثاء كما أنه ليس فيه أمة لم تعرف الموت ، فالرثاء وجد عند كل الأمم والشعوب بادية وراقية متحضرة . ونحن نجد صوراً مبثوثة منه فى الأدب الفرعونى القديم ، تارة منفصلة ، وتارة متصلة ببعض القصص كقصة الآلهة : أوزيريس وسيت وإيزيس ، فإنه حين اعتدى سيت على أخيه أوزيريس وقطعه إرَبا ، وألقى به فى صندوق باليمّ بكته إيزيس أخته وزوجته بكاء حارا ، وكان المصريون يبكونه معها فى أعياده من كل عام . ولا ريب فى أن ما نراه الآن فى المآتم المصرية من « تعداد » النساء ولطمهن وتلطيخ وجوههن ورءوسهن بالطين يرجع إلى أقدم العصور ، ونفس تقاليدنا فى الاحتفال بالموتى والعزاء فيهم ، كل ذلك فيه آثارٌ من آبائنا الأولين .

وللرثاء مكان بارز فى الشعر اليونانى القديم ، إذ اشتهر به شعراء مختلفون مثل أرخلوكوس وسافو وسيمونيدس ، وينبغى أن نشير هنا إلى أن كلمة « إليجى Elegy » اليونانية التى تطلق عند الغربيين المحدثين على المرثية لم تكن تطلق هذا الإطلاق الحديث عند اليونان ، بل كانت تطلق على وزن خاص من أوزان الشعر الغنائى ، وقد يكون موضوعها سياسة أو أخلاقا أو غير ذلك من موضوعات . على كل حال عرف اليونان القدماء الرثاء وشاع عندهم ، ونقله عنهم الرومان بين ما نقلوه من فنون شعرهم وألوانه المختلفة .

ومعروف أن الأدب الغربى الحديث احتذى الأمثلة اليونانية والرومانية ، ومن هنا شاع فيه الرثاء على نحو ما شاع عند اليونان والرومان ، فإذا سرنا مثلا مع الشعر الإنجليزى وجدنا تشوسر « أبا هذا الشعر » ينظم قصيدته الطويلة فى زوجة « الدوق لانكستر » وقد سماها « كتاب الدوقة » . وما زال الشعراء الإنجليز ينظمون مراثى مختلفة حتى بذّهم ملتن بمرثيته لسيداس « Lycidas » وفيها يرثى رفيقاً من رفاقه فى الجامعة ابتلعه اليم ، وسماه باسم ريفى هو لسيداس ، ونحا بقصيدته فيه منحى الشعر الريفى عندهم . ومن أروع المراثى الإنجليزية أدونس « Adonais » لشلى ، وهى فى رثاء الشاعر كيتس الذى مات فى ريعان شبابه ، وأدونيس فى الأساطير الإغريقية شاب جميل وقعت فى شباك جماله ڤينوس ، فاتخذه شلى رمزا لصاحبه . ولتنيسون مرثية طويلة فى صديق له سماها فى الذكرى « In Memoriam » وقد نسج فيها أفكارا رائعة عن الحياة والموت . ومن المراثى الإنجليزية البديعة مرثية توماس جراى وقد دعاها « مرثية كتبت فى فناء كنيسة ريفية » وفيها لا يرثى شخصاً بعينه ، وإنما يرثى الطبقة الكادحة فى الريف التى يموت أفرادها دون أن ينالوا حظا من المجد والشهرة .

وفى الأدب الفارسى مراث كثيرة ، وهم يحتذون فيها أمثلة الشعر العربى ، وخاصة مراثى آل البيت ، فلهم فيها روائع لا تحصى . ويلتقى الأدب التركى بالأدب الفارسى والعربى جميعا فى هذا الباب . واشتهر فى عصر قريب منا شاعرهم عبد الحق حامد بديوانه « مقبر » وهو يرثى فيه زوجه التى سبقته إلى الرفيق الأعلى .

وعلى هذه الشاكلة لا توجد أمة مهما أوغلت فى البداوة أو صعدت فى مراقى الحضارة إلا وهى تبكى موتاها بكاء يصور حزن الإنسان على أخيه ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه يصور حزنه على نفسه ، فالقصة واحدة وكل يوم يسقط فصل من فصولها ، ومن يبكى اليوم غيره يصبح بعد قليل من الزمن محمولا إلى نفس المصير .

الفصل الأول

الندب

١

معنى الندب

الندب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التى تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين فى النحيب والنشيج وسكب الدموع .

وقد عرف العرب منذ العصر الجاهلى المآتم حيث يجتمع النساء للصياح والعويل على الميت ، وظل ذلك فى الإسلام ، إذ أباحه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم محرّما ما كان يقترن به من خَمْش للوجوه بالجلود وحلق للرءوس. وإنما أباحه لما فيه من تنفيس عن أهل الميت وشفاء لمصابهم فيه ، ويروى الرواة أنه لما بكت نساء المدينة على قتلى غزوة أحُد من ذويهن قال الرسول : «لكن حمزة بن عبد المطلب لا يبكيه أحَدٌ» ، وكان قد قتل فى هذه الغزوة ، فأصبح سُنَّةً فى نساء المدينة أن لا يقمن مأتماً على مر العصور إلا بدأْنَ بكاءهن بحمزة عمّ الرسول .

ونجد النساء الندابات فى الجاهلية يؤلفن الأشعار التى يندبن بها موتاهم ، ومع مضى الزمن انفصلت صناعة الندب عن صناعة الشعر ، فأصبح هناك محترفون ومحترفات يُعْوِلون فى المآتم بأشعار تصنع لهم . والغَرِيض مغنى مكة المشهور فى العصر الأموى هو أهم من احترفوا صناعة الندب فى عصره ، فكان الشعراء إذا مات شريف أو شريفة صنعوا له أبياتاً ينوح بها ، وقالوا إنه

كان يتفوق تفوقاً ظاهرا على جميع الناحة والبكائين فى الحجاز لما امتاز به من صوت حزين يمتلىء بالأسى والشجى .

وكان الغَـرِيض وغيره ينوحون على نَقْر الدفوف وضرب الصنوج ، حتى يصبح النواح شيئا مفزعا . وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى يزخر بأصوات محزنة غُنِّيَتْ فى المآتم ، وكلها ذات رُقُمٍ موسيقية مضبوطة .

ومهما شَرَّقنا فى العالم العربى أو غرَّبنا وجدنا هذا الندب والنواح ، وهو فى أصله إنما يكون على الأهل والأقارب ، وقد يبكى الشاعر نفسه ساعة الاحتضار حين يحس بالموت ، وقد كشَّر له عن أنيابه ، فيفزع إلى بعض أبيات يصور فيها كارثته ، أو يصور ألمه وأحزانه على فراق فردوسه الأرضى .

وقد يتحول هذا الندب والنواح إلى مآتم تدور مع الأعوام والسنين ، وكأنها مآسٍ كبيرة تمثَّل من حين إلى حين . ويتضح ذلك فى رثاء آل البيت ، فقد بكاهم شيعتهم بكاء مرا ، وعقدوا لهذا البكاء مواسم عينوها فى أيام السنة ، وأحالوها حزنا وسوادا .

ولم يبك شعراؤنا الأفراد والأُسَر فحسب ، بل بكوا أيضاً الدول التى دالت ، والبلدان التى خُرِّبت أو امتدت إليها أيدى الصليبيين أو مسيحيي الأسبان ، فهى الأخرى لها حظها فى الندب والبكاء واللوعة والأنين .

٢

نَـدْبُ الأهل والأقارب

لعل أقدمَ صور الندب والنواح فى شـعرنا العربى هى صورة نَدْب الأهل والأقارب والنواح عليهم . وللمرأة الجاهلية فى هذا المجال القِسْط الأكبر والنصيب الأوفر ، إذ كانت تندب أباها وإخوتها ، فما تزال تنوح على من يتوفى منهم حَتْفَ [١] أنفه ، وعلى من يموت قَعْصا [٢] بالرماح والسيوف ،

(١) الموت حتف الأنف : الموت على الفراش .

(٢) قعصه بالرمح أو السيف : قتله فى مكانه .

وما أكثر من كان يموت منهم فى حروبهم الدائرة على المراعى .

وكلنا نعرف كثرة أيامهم ووقائعهم فى الجاهلية ، وكان كلُّ يومٍ يخلِّف وراءه صَرْعَى ، وكل صريع تندبه النوادب من أهله وقبيلته . فكنَّ يلطمن ويخمشن وجوههن ويحلقن رءوسهن ويشققن جيوبهن ويقرعن صدورهن على من طوّح به الأعداء أو طوّحت به الأقدار إلى مهاوى القبور .

وكتاب « مراثى شواعر العرب » للويس شيخو يصور مدى ما قامت به المرأة فى هذا الجانب المظلم الحزين ، إذ كانت هى التى تعبر عن ألم القبيلة وحزنها على أبطالها ، وخاصة عقب الأيام والحروب ، ولم تكن تقصد إلى إظهار الحزن فحسب ، بل كانت تقصد أيضاً إلى إثارة القبيلة على خصومها .

وأشهر من بكتْ واستبكتْ فى الجاهلية الخنساء ، إذ قتل أخوها معاوية فى بعض غاراته ، فعقدت عليه مأتما ضخما من النواح ، وأثار ذلك أخاها صخرا ، فثأر له ، ولكنه جُرح جرحا بليغا أدّى إلى وفاته . فعادت إلى نواحها بأشد مما صنعت على أخيها معاوية ، وكأنما سعّر صخرٌ قلبها ، وأشعل صدرها بشعلة من الحزن لا تخبو ولا تهدأ . ولحقت الإسلام . وأسلمت ، ومع ذلك ظلت ذكرى صَخْرٍ عالقة بنفسها ، وفيه تقول :

قَذًى بعَيْنك أم بالعَيْن عُوَّارُ ... أم ذرَّفَتْ أن خَلَتْ من أهلها الدارُ[1]

كأنَّ عينى لذكراه إذا خطرَتْ ... فيضٌ يسيلُ على الخدَّين مِدْرارُ[2]

فالعينُ تبكى على صَخْرٍ وحقَّ لها ... ودونه من جديد الأرض أستارُ[3]

تبكى خُنَاسُ وما تنفك ما عَمَرَتْ ... لها عليه رنينٌ وهى مِقْتارُ[4]

---

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطرا متعاقباً .

(٢) الفيض : الماء الغزير ، ومدرار : كثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وجديد الأرض كناية عن أنه مات حديثا ، فأرضه التى دفن فيها لا تزال جديدة لم تبل ولم تندثر .

(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .

تبكى خُنَاسُ على صَخْرٍ وحقّ لها إذ رَابَها الدهرُ إن الدهر ضرّارُ(١)

بكاء والهةٍ ضَلّتْ أليفتَها لها حنينان : إصغارٌ وإكبارُ(٢)

تَرْعَى إذا نسِيَتْ حتى إذا ذكرتْ فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ

وإن صَخْراً لتأتمُّ الهداةُ بهِ كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ(٣)

وواضح أن الأبيات تمتلىء بالمشاعر الصادقة ، وهى مشاعر أخت تعمّقها الحزن ، بل إن قلبها ليكتوى به ، وهى لا تملك إفصاحا عن حرارته فى أحشائها إلا هذه الكلمات الملتاعة ، فهى تحملها كل ما تشعر به من وَجْد ، وترفع بها صوتها وترجّعه كترجيع الوالهة من الحيوان على أليفها ، فهى لا تقصد ولا تعتدل ، بل تفرط فى نحيبها وتعلو بنشيجها ونواحها ماوسعها الإفراط والعلو . إن أخاها الذى كان أملها فى دنياها بعد أن خطفت المنون أخاه قد أصبح بين عَشيّة وضحاها خلف أستار وأحجار ، وما تزال الأرض التى وُسِّد فيها جديدة ، فموته منذ أيام ، ونزوله فى هذه الحفرة المظلمة لم يمض عليه إلا فترة قصيرة . وهى تنظر إليه من حولها كما عوّدها فلا تراه ، فتندبه ندبا حارا ، وما تزال تذهب وتجىء ، وما تزال حائرة ، والدموع فى عينيها ولسانها ينوح . ويموت أبوها فتبكيه ، وتتحول حياتها إلى مآتم متكررة ، لا تزال تبكى فيها وتنتحب .

وهذه اللوعة المتقدة فى فؤاد الخنساء نجدها تتقد أيضاً فى فؤاد بعض الشعراء على إخوتهم ، ولعل مُتَمّم بن نُوَيْرة الشاعر المخضرم أكثر الشعراء القدماء لوعة وحرقة على أخيه ، وكان قد قتل فى حروب الردّة ، فرثاه رثاء حارا لا يصدر إلا عن قلب موجع وفؤاد ملتاع ، ومن قوله فيه :

لقد لامنى عند القبور على البُكا صديقى لتَذْرافِ الدموع السّوافكِ

يقول أتبكى كلّ قبرٍ رأيتَهُ لقبرٍ ثَوَى بين اللِّوَى فالدّكادِكِ(٤)

(١) رابها الدهر : رأت منه ما يسوءها .

(٢) الإصغار بالحنين : خفض الصوت به ، والإكبار : رفعه .

(٣) العلم : الجبل

(٤) لوى الرمل : منقطعه ، والدكادك : جمع دكدك وهو الرمل المستوى .

فقلت له إن الشَّجَى يَبعَثُ الشَّجَى   فدعْنى فهــذا كلُّه قبْرُ مالكِ

وقد ظل يبكيه حتى ابيضّت عيناه من الحزن ، وحتى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له ، وصار ندبه لأخيه مصيرَ الأمثال ، فهو يُرْوَى ويتمثّل به فى كل مكان ، ومن بديع ما قاله فيه :

أَبَى الصَّبْرَ آياتٌ أراها وإننى   أرى كل حَبْلٍ بعد حَبْلك أقْطعا(١)

وأنّى متى ما أَدْعُ باسمك لا تُجِبْ   وكنتَ حَرِيًّا أن تجيب وتَسْمَعا

تحيَّتَه منى وإن كان نائياً   وأمسى تُرَاباً فوقه الأرض بَلقَعا(٢)

فإن تكن الأيام فرّقْنَ بيننا   فقد بانَ محمودا أخى حين ودّعا(٣)

وكنا كنَدْمانَىْ جَذِيمــةَ حِقْبةً   من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا(٤)

فلما تفرّقنا كأنى ومالكاً   لطول اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معا

ولو أن ما ألقى أصاب مُتالعاً   أو الرُّكْنَ من سَلْمى إذن لتَضَعْضَعا(٥)

سقى الله أرضا حلَّها قبرُ مالكٍ   ذِهَابَ الغوادى المُدْجنات فأَمْرعا(٦)

والأبيات من قصيدة طويلة حاول أن يتجلد فى أولها ، ولكن لم يلبث أن غلبه الحزن على أخيه فتحسّر على فراقه ، وبكى لوداعه ، وإنه ليحييه من بعيد وهو يئن أنين الثكلى المقروحة الفؤاد ، مصوّرا عِظَم ما نزل به من المصيبة الفادحة التى لو نزلت بجبل لدكته دكّا . ولم يلبث أن استسقى لقبره قطعَ

---

(١) أقطع : مقطوع .

(٢) البلقع : الأرض القفر .

(٣) بان : فارق .

(٤) جذيمة هو جذيمة الأبرش ، نادم مالكا وعقيلا ابنى فارج بن كعب ، ثم قتلهما ، يتصدعا : يتفرقا .

(٥) متالع وسلمى : جبلان .

(٦) الذهاب : جمع ذهبة وهى القطعة الغزيرة من المطر ، والغوادى : السحب التى تغدو بالغيث ، والمدجنات : الكثيفة الشديدة السواد ، وأمرع : أخصب .

السحاب الكثيفة حتى تخضرّ الأرض من حوله وتزْهى به وبجدته ، ويصبح منها فى روض بهيج .

وما يزال الزمن يتقدم بنا حتى نلتقى بالعصر العباسى عصر الرقى الفكرى والتعمق فى الأحاسيس والمشاعر فنجد أبا تمام يرثى أخاله رثاء باكيا ، وكأن كل بيت فيه يقطر دمعا بل دما ، فالحزن يجرى فى قلبه وفؤاده ، بل فى أعطاف أبياته نفسها ، فهى تنبض به وتتخفق ، يقول :

إنى أظنُّ البِلَى لو كان يفهمه ... صَدَّ البِلَى عن بقايا وجهه الحسَنِ
يا يومه لم تدعْ حُسْنًا ولا أدبًا ... إلا حكمْتَ به لَلَّحْدِ والكفنِ
لله مقلته ! والموتُ يكسرها ... كأن أجفانه سَكْرَى من الوسَنِ
يردُّ أنفاسه كَرْهًا وتَعطِفُها ... يَدُ المنية عَطْفَ الريح للغصُنِ
يا هَوْلَ ما أبصرتْ عينى وما سمعتْ ... أُذْنى فلا أبصرتْ عينى ولا أُذُنى
لم يبق من بدنى جزءٌ علمتُ بهِ ... إلا وقد حَله جُزْءٌ من الحزَنِ
كان اللَّحاقُ به أهْنَا وأحْسَنَ بى ... من أن أعيش سقيمَ الروح والبدَنِ

وهو فى هذه الأبيات يصور تصويرا دقيقا صراع أخيه مع الموت ساعة الاحتضار ، وقد عرف كيف ينقل إلينا اللحظة بكل ما وخزه فيها من إبر الألم والجزع ، حتى ليتحول إلى هيكل للأوصاب والأشجان ، فكل جزء فيه يملؤه وصب وشجن ووجع ، لما رأى وسمع . لقد رأى أخاه والموت يكسر أجفانه ويخنق أنفاسه ، وإن كل نفَس ليخترق حجاب سمعه بما فيه من حشرجة ، فتكاد تنقطع نياط قلبه هما وحزنا ، وإنه ليود أن يلحق بأخيه حتى لا تعاوده أشباح هذه الذكرى التى تضغط على قلبه وتعتصر فؤاده اعتصارا .

وإذا كانت أصوات النائحة قد ارتفعت على مر العصور مع موت الإخوة فإن هذه الأصوات قد بُحّت مع موت الأبناء وأفلاذ الأكباد ، فإن حرارة الأمهات والآباء بهم تأكل قلوبهم وأفئدتهم إذ يرون كأن أجزاء وأعضاء من أجسادهم بُترت بترا ، وصدقت هذه الأعرابية التى تقول فى رثاء ولدها :

يا قُرْحةَ القلب والأحشاء والكَبِدِ ياليت أمّك لم تحبَلْ ولم تَلِدِ
أيقنتُ بعدك أنى غيرُ باقيةٍ وكيف يبقى ذراعٌ زال عن عَضُدِ

فهى تشعر شعورا عميقا بأن جزءا منها واراه التراب ، وهى فى طريقها إليه لتضمه إلى جسدها وصدرها . فحياتها قد انتهت بموته ، وهى تجتاز وادياً مظلماً من الغُصَص والآلام ، وتقطعه بين النشيج والنحيب ، حتى تصل إليه بعد التعب وطول العناء والشقاء . وما أصدق بكاء الأب الذى هوى ابنه تحت عينه من قمة جبل ، ففارقته روحه للتوّ والساعة ، فراح يقول :

هَوَى ابنى من عُلا شَرَفٍ يهول عُقابَهُ صعَدُهْ (١)
ولا أمٌّ فتبكيه ولا أختٌ فتفتقدهْ
هَوَى عن صَخْرَةٍ صَلْدٍ ففُرّتْ تحتها كَبِدُهْ (٢)
ألامُ على تبكّيهِ وألمسهُ فلا أجدُهْ

فابنه قد سقط سقطة لا إقالة له منها ، سقط فى هاوية الموت بأسفل الجبل ، ورآه أبوه وهو يسقط فى قرار الأبدية العميق ، ولم يستطع أن يمد له عونا ، ومع ذلك لا يزال يظن أنه من حوله ، فيضع يده ويتحسس كالأعمى فلا يجده ، وإنما يجد الفقد والوجد والبكاء .

ولعل أبا لم يبلغ من التعبير عن لوعته بفقد أبنائه ما بلغه أبو ذُؤَيْب الهُذَلىّ فى بكائه لبنيه السبعة الذين اختطفهم الموت من يده وحجره ، فقال يتوجع لفراقهم ويتحسر لموتهم :

أمِنَ المَنون (٣) وريبه تتوجّعُ والدهر ليس بمُعتِبٍ من يَجْزَعُ
قالتْ أميمةُ ما لجسمك شاحبا منذ ابتُذِلْتَ ومثلُ مالك ينفع

---

(١) الشرف : قمة الجبل ، والصعد : الصعود .
(٢) الصلد من الصخور : الذى لا ينبت ، وفرت : تقطعت .
(٣) المنون هنا : الدهر .

أم ما لجسمك لا يلائم مَضْجَعا ... إلا أقضّ[١] عليك ذاك المَضْجَعُ

فأجبتها أمّا لجسمى إنّه ... أوْدَى بَنِىّ من البلاد فودّعوا[٢]

أوْدَى بَنِىّ وأعقبونى حسرةً ... بعد الرقاد وعبرةً ما تُقْلِعُ[٣]

سبقوا هَوِىَّ وأعنقوا لهواهُمُ ... فتُخُرِّموا، ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ[٤]

فبقيتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ ... وإخال أنى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ

ولقد حَرَصْتُ بأن أدافع عنهمُ ... وإذا المنيةُ أقبلتْ لا تُدْفَعُ

وإذا المنيّةُ أنشبتْ أظفارَها ... ألفيتَ كل تميمةٍ لا تَنْفَعُ[٥]

فالعين بعدهمُ كأنّ حِدَاقَها ... سُمِلَتْ بشوكٍ فهْىَ عُورٌ تدمع[٦]

حتى كأنى للحوادث مَرْوَةٌ ... بصَفا المُشَرّق كلّ يومٍ تُقْرَعُ[٧]

ولئن بهم فجعَ الزمانُ ورَيْبُهُ ... إنى بأهل مودّتى لمفجّعُ

وهى صيحة حسرة وألم صاحها أبٌ من أحشائه وسويداء فؤاده ، وقد وصف فيها شحوبه وسهاده ودموعه التى لا ترقأ ولا تجف ، وذكر أن عيشه انقلب مرا من بعدهم ، فهو يتجرع الحياة كأنها غُصَصٌ من العذاب . لقد رآهم والموت يتلقفهم واحدا بعد واحد ، فلم يستطع دفعا له ولا ردا . وتلك البراعم التى غرس شجرتها وسقاها من روحه وقلبه تتفتت وتذبل أزهارها فى الكمام ، ولا حول له ولا قوة . إن عليه أن يتلقى النهاية المفجعة لكل فلذة من فلذات كبده . وكل ابن كان ملء روحه وقلبه ، وتقفر الدنيا من حوله ، ولا يبقى له إلا الألم والبكاء الممض وإلا هذا الوادى وادى الموت الذى يجوس خلاله .

---

(١) أقض عليه المضجع : وجده خشنا لا يريحه .

(٢) أما هنا مركبة من أن وما الموصولة ، أودى : هلك .

(٣) تقلع : تكف .

(٤) هوى : هواى ، أعنقوا : أسرعوا ، تخرموا : ماتوا واحدا بعد واحد .

(٥) التميمة : العوذة .

(٦) الحداق : جمع حدقة ، سملت : فقئت .

(٧) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار .

وما يزال الشعراء يضجون بالبكاء والندب على أبنائهم حتى نصل إلى العصر العباسى ، فنجد إبراهيم بن الخليفة المهدى يموت له ابن بعيدا عنه فى البصرة ، وكان هو ببغداد ، فقال يرثيه :

دَعَتْه نَوًى لا تُرتَجَى أَوْبَةٌ لها ... فقلبك مسلوبٌ وأنت كئيبُ
تبدَّل داراً غير دارى وجيرَةً ... سواى وأحداثُ الزمان تنوبُ
يؤوب إلى أوطانه كلُّ غائبٍ ... وأحمدُ فى الغُيَّابِ ليس يئوبُ
كأن لم يكن كالغُصْنِ فى ميعةِ الضُّحَى ... سقاه النَّدَى فاهتزَّ وهْوَ رطيبُ
كأن لم يكن كالدرِّ يلمع نورُهُ ... بأصْدَافِهِ لمَّا تَشِنْـــهُ ثقوبُ
وريحانَ صَدْرِى كان حين أشمُّه ... ومُؤْنِسَ قَصْرِى كان حين أغيبُ
قليلاً من الأيام لم يَرْوَ ناظِرى ... بهـا منه حتى أعلقته شَعوب(١)
كظل سحابٍ لم يُقم غير ساعةٍ ... إلى أن أطاحتْهُ فطاح جَنوب(٢)
أو الشمسِ لمَّا من غمام تحسَّرتْ ... مساءً وقد ولَّت وحان غروبُ
سأبكيك ما أبقت دموعِىَ والبُكا ... بعينىَّ ماءً يا بُنَىَّ يُجيبُ
وما غار نجمٌ أو تغنَّتْ حمامةٌ ... أو اخضرَّ فى فَرْعِ الأراك قضيبُ
حياتِىَ ما دامت حياتى فإن أمتْ ... ثويتُ وفى قلبى عليك ندوبُ(٣)
وأُضمِر إن أنفدتُ دمعىَ لوعةً ... عليك لها تحت الضلوع وَجيبُ
وإنَّ صباحا نلتقى فى مسائهِ ... صباحٌ إلى قلبى الغداةَ حبيبُ

ولا ريب فى أن هذه صرخة من الأعماق فإن أحمد توفى دون أن يراه أبوه ، توفى بعيدا عنه غريبا عن الأهل والأقرباء ، وإن ذلك ليحزّ فى فؤاد أبيه ، بل إنه ليلتاع له التياعا ، فكل غريب يؤوب إلا أحمد ، وتلك القوافل كلها

---

(١) شعوب : المنية .
(٢) الجنوب : الريح الجنوبية .
(٣) ندوب : جروح .

خلاء منه . إنه رحل فى قافلة أخرى ، قافلة لا تسير فى النهار ، وإنما تسرى فى ليل الأبدية . وينعاه أبوه ، ينعى شبابه ونضرته وريحانه وأنسه . وإنه ليذكر أيامه الماضية فتتراءى له قصيرة كظل سحابة وغروب شمس ، فيبكى ويئن مع طلوع كل صباح ودخول كل مساء، ومع حنين الطير وشدْو الحمام . ووراء الأنين والبكاء حرقة الوجد وألم الفقد، وإنه لينتظر الموت ، حتى يُغرق فى لُجَّته عذابه ، بل حتى يلقى ابنه الذى فصمه منه وفصله عنه .

ونمضى فنلتقى بأبى تمام ، وقد قرع الموت فؤاده ، إذ استخلص لنفسه منه ابنه ، وكان تحت بصره وهو يجالد الموت بكل ما يملك ، ولكن الموت غلاب ، فلم يلبث أن غلبه على أمره ، فاستسلم لقضاء ربه ، ورأى كلَّ ذلك أبو تمام ، فقال :

آخرُ عهدى به صريعا	للموت بالداء مستكينا
إذا شكا غُصَّةً وكَرْبا	لاحظ[1] أو راجع الأنينا
يُديرِ فى رَجْعِهِ[2] لسانا	يمنعه الموتُ أن يُبينا
يَشْخَصُ طورا بناظرَيْهِ	وتارة يُطْبِق الجفونا
ثم قَضَى نَحْبَهُ فأمسى	فى جَدَثٍ[3] للثَّرَى دَفينا
بعيدَ دارٍ قريبَ جارٍ	قد فارق الإلف والخدينا[4]

ولا يقرأ أحد هذه الأبيات حتى ينبض قلبه ويخفق ، لأن أبا تمام عرف كيف يصور لحظة الاحتضار وما يرافقها من ضربات الموت ، إنها تسدَّد إلى ابنه ، وهو لا يستطيع لها ردا ، ويشكو ويفتح عينيه ، وما تلبث يد الموت السوداء أن تغمضهما ، بل إنها لتتقدم له بكئوس مليئة بالغصص والكُرَب ، ولا يستطيع إلا أن يشرب منها ، يشرب السم الزعاف . إن روحه عند حلقه ، وإن ومضات الحياة

(١) لاحظ : نظر إلى أهله مستغيثا .
(٢) الرجع : رد الكلام .
(٣) الجدث : القبر .
(٤) الخدين : الصديق .

تبرق فى عينه، ثم لاتلبث أن تختفى فى ظلام الموت وبين سحبه التى اكفهرّ بها الجو، وإنه بحو خانق . واختنق الغلام وفارق دنياه، وخلّف أباه وراءه للأوجاع والآلام، على نحو ما خلف لابن الرومى ابنه الأوسط محمد، إذ مات منزوفا، فقال يبكيه:

تَوَخَّى حِمامُ الموتِ أوسطَ صِبْيَتى ... فللّه ! كيف اختار واسطةَ العِقْد[1]

لقد قلّ بين المَهْـدِ واللّحْدِ لُبْثُهُ ... فلم يَنْسَ عهدَ المهد إذ ضُمّ فى اللّحْد

ألحّ عليـه النّزْفُ حتى أحالَهُ ... إلى صفرَةِ الجادىِّ عن حُمْرَة الوَرْدِ[2]

وظلّ على الأيدى تساقطُ نفسُهُ ... ويَذْوَى كما يَذْوَى القَضِيبُ من الرّنْد[3]

فيالكِ من نَفْسٍ تسـاقطُ أنْفُسًا ... تساقطَ دُرٍّ من نظام بلا عَقْدِ[4]

أريحانةَ العينين والأنفِ والحَشَا ... ألا ليت شعرى هل تغيّرتَ عن عهدى

كأنّىَ ما استمتعتُ منك بضَمّـةٍ ... ولا شمّةٍ فى ملعبٍ لك أو مَهْـدِ

ألامُ لما أُبدى عليك من الأسى ... وإنى لأُخفى منك أضعاف ما أُبدِى

عليك سلامُ الله منى تحيّـةً ... ومن كل غَيْثٍ صادق البرق والرّعدِ

وابن الرومى مثل أبى تمام محترق القلب على ابنه الذى رآه يجود بنفسه تحت بصره، وقد عركه النزف وأحاله فى صفرة الزعفران، وإنه ليرتعش فى يد الموت الأثيم الذى سلّ عليه سيفه، وإن دماءه لتسيل والمنون لا ترحم . فيا لابن الرومى! إنه يشعر كأن نفسه تتساقط من بين جنبيه وهذه الزهرة الحالمة التى كان يجد فيها فرحة قلبه وحشاه قد أخذت تذوى قبل الأوان، وكأنه لم يستمتع منها بشمة ولا ضمة فيا لبؤس الحياة ! إنها تبدو فى صورة بشعة من القبح والألم . وابن الرومى يفزع ويرتاع، ولا ينفعه فزعه ولا ارتياعه، فيعود إلى تحية ابنه ويستسقى له على عادة العرب الغيثَ والسحاب .

(١) واسطة العقد : الجوهرة التى تتوسط لآلئه .

(٢) الجادى : الزعفران .

(٣) الرند : شجر طيب الرائحة .

(٤) نظام بلا عقد : سلك غير معقود .

وما أكثر من بكوا أبناءهم ! وبكاءُ التهامى لابنه ذائع مشهور ، وهو يستهله بالحديث عن فناء الناس وكل ما على الأرض ، وما يلبث أن يندبه ندبا حارا ، فيقول :

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمرَهُ ... وكذاك عُمْرُ كواكبِ الأسحار

وهلالَ أيامٍ مضى لم يَسْتَدِرْ ... بَدْرا ولم يُمْهَلْ لوقت سِرَار (١)

عجل الخسوفُ عليه قبل أوانه ... فمحاه قبل مَظِنَّةِ الإبْدَار

ومن أروع ما نظم فى بكاء الأبناء مقطوعة لفقيه الأندلس أبى الوليد الباجى ندب بها ابنين له ماتا مغتربين ، وهى تجرى على هذا النمط :

رَعَى اللهُ قبرَيْن استكانا ببلدةٍ ... هما أسكناها فى السواد من القَلْبِ

يَقَرُّ بعينى أن أزور ثراهما ... وأُلصقَ مكنونَ الترائب فى التُّرْب (٢)

وأبكى وأبكى ساكنيها لعلنى ... سأَنْجَدُ من صَحْبٍ وأُسْعَدُ من سُحْبِ (٣)

فما ساعدتْ وُرْقُ الحمام أخا أسىً ... ولا روَّحتْ رِيحُ الصَّبا عن أخى كَرْبِ

ولا استعذبتْ عينـاى بعدهما كَرًى ... ولا ظمئتْ نفسى إلى البارد العَذْب

أحِنُّ ويَثْنِى اليأسُ نفسى عن الأسى ... كما اضطرَّ محمولٌ على المركب الصَّعْبِ

والأبيات تفيض بالشعور الصادق الذى يعبر عن نفس مجروحه قد هدّها الهم وضعضعها الحزن ، وإن صاحبها لجزع أشد الجزَع ملتاع أعظم التياع .

وربما كان أهمّ شاعر ولع برثاء ابنه وبكائه أبو الحسن على بن عبد الغنى الكفيف شاعر القيروان الذى هاجر إلى الأندلس حين خرّبها العرب حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة ، فقد توفى له ولد فى التاسعة من عمره ، فصنع فيه مراثىَ على حروف المعجم ألف منها ديوانا سماه « اقتراح القريح واجتراح الجريح » وفيه يقول :

(١) يستدر : من استدارة البدر فى وسط الشهر . وقت السرار : وقت اختفاء القمر جملة .

(٢) الترائب : عظام الصدر

(٣) أسعد : من أسعده أى أعانه فى البكاء والنواح

أنا فَرْدٌ بلا خليلٍ ولا ابنٍ ولا أخٍ
أنا كالأورق اشتكى بُعْدَ وَكْرٍ وأفْرُخٍ
قُرَّةُ العين دونه برزخٌ أىُّ بَرْزَخٍ

ومع طول الديوان تقل فيه الأبيات الملتاعة ، إذ شُغِل صاحبه بالصور البيانية والحيل البلاغية مما كان يعد آية البراعة فى عصره .

ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن ندب الأبناء والإخوة يستوفى أكثر الصفحات المحزونة من ندب الأهل والأقارب ، فإننا إذا تركناهم إلى غيرهم من الأصول والفروع لم نجد هذه الحرقة التى تتضور لها الأحشاء والقلوب ، ومع ذلك من حين إلى حين نجد بكاءً لأب أو أم أو جدة أو أخت أو بنت ، وربما كانت مرثية شوقى لأبيه خير صورة لندب الآباء فى العربية ، وإن كان قد أدخل عليها تفكيراً فى الحياة والممات ، ولكن تظل بعض الأبيات لها روعة الندب والبكاء كقوله :

أنا من مات ومن مات أنا لقىَ الموتَ كلانا مرتين
نحن كنا مهجةً فى بَدَنٍ ثم صرنا مهجةً فى بدنين
ثم عُدْنا مهجة فى بَدَنٍ ثم نُلْقَى جُثَّةً فى كفنين
ما أبى إلا أخٌ فارقْتُه وده الصدقُ وود الناس مَيْن
طالما قمنا إلى مائدةٍ كانت الكِسرةُ فيها كسرتين
وشربنا من إناء واحدٍ وغسلنا بعد ذا فيه اليدين

وقليل بين الشعراء من رثى أمه ، وربما كان من أجمل ما قيل فى الأمهات قول ابن سناء الملك فى أمه من موشحة :

حزنى على أمىَ حزنٌ شديدْ تَبْلَى الليالى وهْوَ غضٌّ جديدْ
فقل لنار القلب هل من مزيدْ وقل لصَرْف الدهر هل من مَحِيد

ورثى المتنبي جدته ، ولكن رثاءه فيها يدور على الفخر بنفسه أكثر مما يدور على بكائها ، وقد تأثر به شوقى فى رثاء جدته « تمراز » . ويندر أن نجد ندبا حارا لأخ على أخته ، وربما كان أبو فراس الحمدانى خير من ندب أختا له ، ففى أخته يقول :

عقيلتيَ استُلبت من يدى ولما أبِعْها ولما أهَبْ
وكنت أقيكِ إلى أن رمتْكِ يَدُ الدهر من حيث لا أحتسِبْ
فلا سلمتْ مقلةٌ لم تسحَّ ولا بقيتْ لمَّةٌ لم تَشِبْ

وهذه كلها مراث لا تبلغ من حرارة التفجع ما تبلغه مراثى الأبناء ، وإذا كان هناك قصور فهو من قِبَل الرجال الذين تعودوا — تقليداً للجاهليين — أن لا يرثوا بناتهم وأمهاتهم وأن لا يبكوا عليهن. أما المرأة فكانت أكثر وفاء للرجل ، بكته أخا وأبا وابنا ، وبكته زوجاً ، حدث الأصمعى أنه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدها بقبر زوجها وهى تبكى وتقول :

خَدِّى تقيك خشونة اللَّحْدِ وقليلةٌ لك سيدى خَدِّى
يا ساكن القبر الذى بوفاته عميتْ علىَّ مسالكُ الرُّشْدِ
اسمعْ أبثُّك عِلتى فلعلنى أُطْفِى بذلك حرقةَ الوَجْدِ

وتزوج الأمين بفتاة ، وتوفى عنها قبل أن يبنى بها ، فندبته ندبا حارا ، ومن قولها فيه :

أبكيك لا للنعيم والأُنُسِ بل للمعالى والرمح والفرسِ
أبكى على سَيِّدٍ فُجِعْتُ بهِ أرملنى قبل ليلة العُرُسِ

فالمرأة لم تقصر فى بكاء أهلها وأزواجها ، وقد بكى كثير من الرجال زوجاتهم ، وربما كانت الزوجة أهم النساء اللائى ذرف الرجال عليهن الدموع ، فنحن نجد فى كتب الأدب قديما وحديثا قطعاً مبكية فى هذا الجانب . ومن

طريف ما رُوِىَ لبعض الأعراب :

فو الله ما أدرى إذا الليل جَنَّنى ... وذكَّرنيها أيُّنا هو أوْجَعُ
أمنفصلٌ عن ثَدْىِ أمٍّ كريمةٍ ... أم العاشق النابى به كلّ مضجعِ (١)

وصور هنا هذا الأعرابى ما يبكيه الرجل فى زوجته ، فهو يبكى معشوقته من جهة وأم أطفاله منْ جهة ثانية . ومن أروع ما رُثى به الزوجات وأشجاه قول محمد بن عبد الملك الزيات فى زوجته :

ألا من رأى الطفل المفارق أمَّه ... بُعَيْدَ الكَرَى عيناه تبتدران (٢)
رأى كل أمٍّ وابنَها غير أمّه ... يبيتان تحت الليل ينتجيانِ
وبات وحيدا فى الفراش تحثُّه ... بلابلُ قلبٍ دائم الخفقانِ
فلا تَلْحَيَانى إن بكيت فإنما ... أداوى بهذا الدمع ما تريانِ
وإن مكانا فى الثرى خُطَّ لحده ... لمن كان فى قلبى بكل مكانِ
أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إن عُجْتُ منتظرانِ

وفى هذه الأبيات لوعة حقيقية ، لوعة الزوج الوامق الذى يكاد يموت حسرة وأسى على زوجته ، وإنه ليولى وجهه شطر ابنها ، ويرى حزنه ووله ، فتعظم الحسرة ويعظم الأسى والشجن فى نفسه ، فيحن إليها ، يحن إلى جسدها وروحها ، وما يزال يختلف إلى قبرها بنفس الحرارة والعمق اللذين كان يختلف بهما إلى قصرها . وماذا يستطيع ، وماذا يجنى ؟ إنها ذهبت إلى الأبد ولم يعد له منها إلا الدموع الغزار وإلا الآلام والأشجان .

وعلى نحو ما رثى العباسيون زوجاتهم رثوا جواريهم وبكوهن ، وارتفع صياحهم وراءهن ، وناحوا عليهن نواحا لا ينقطع ، وممن اشتهروا بذلك فى العصر

---

(١) واضح أن حركة الروى فى هذا البيت تخالف حركته فى البيت السابق ويسمى العرب ذلك إقواء .

(٢) تبتدران هنا : تسيلان بالدموع .

العباسي يعقوب بن الربيع ، وكان عشق جارية ، وظل سبع سنوات يبذل فيها جاهه وماله حتى ملكها فأقامت معه بضعة أشهر ، ثم ماتت ، فشعر كأنه كان فى حلم وأفاق منه على البؤس ، وله فيها ندب كثير ، منه قوله :

لله آنسةٌ فُجعتُ بهـــا ما كان أبعدها من الدَّنَسِ
أتتِ البشارة والنعيُّ معـا ياقرب مأتمها من العُرُسِ
كم من دموعٍ لا تجِفُّ ومن نَفْسٍ عليك طويلة النفَسِ
أبـــكيك ما ناحتْ مطوَّقةٌ تحت الظلام تنوح فى الغَلَسِ

وكأنما كان هناك سباق بين القدر وبين يعقوب أن لا ينعم بأمنيته ، فلم يكد يظفر بها ، ولم تكد تغمر حياته بنور السعادة ، حتى فرت من أمام عينيه ، وخلفت له الظلام والوحشة . ألا إن هذه سخرية القدر ، لقد ظل يطلبها سبع سنين ، ولم يكد يحصل عليها ويلمسها ، يلمس فرحته وسعادته ، حتى أتاه النعيّ مع البشرى ، وانقلب العرس البهيج إلى مأتم حزين .

وعلى نحو ما بكى العباسيون جواريهم وزوجاتهم بكاء فيه شجى وأسى بكت الأقاليم العربية الأخرى ، فى كل مكان نجد مراثى الجوارى والزوجات ، فمن ذلك رثاء المعلَّى الطائى المصرى جاريته « وصْف » وفيها يقول :

ياموت ما بقَّيْتَ لى أحدا لما زففتَ إلى البلى وَصْفا
أسكنتَها فى قعْرِ مظلمــةٍ بَيْتا يصافح تُرْبــه السَّقفَا
بَيْتـا إذا ما زاره أحــدٌ عصفتْ به أيدى البلى عَصْفا
ياقـــبرُ أبْقِ على محـاسنها فلقد حويتَ النور والظَّرْفا

وهى مرثية طويلة ، وتمتاز بالعاطفة الصادقة والشعور العميق بالحزن .
وللمصريين من ورائه مراثٍ مبكية كثيرة فى زوجاتهم ، وكذلك الأندلسيون ، ولبعضهم فى رثاء زوجته وكانت تسمى زينب :

أزينبُ إن ظعنتِ فإن ظَهْرًا أقلّكِ[1] سوف يركبهُ المقيمُ
ولما أن حَلَلْتِ التُّرْبَ قلنا لقد ضلَّت مواقعَها النجومُ
ألا يازهرة ذَبُلَتْ سريعا أضنَّ المُزْنُ أم ركَد النسيمُ

والصورة المرسومة فى البيت الأخير جميلة حقا ، وهى صورة أملاها حب دفين لزوجة اختطفها المنون وهى لا تزال فى عمر الزهور . إنها زهرة ندية عطرة لم تلبث أن ذوت قبل الأوان ، وبديعٌ من الشاعر أن أكمل الصورة بقوله « أَضَنَّ لمزن أم ركد النسيم ؟ » فقد صبَّ فى هذا التساؤل الذى تتساءله مواكب الإنسانية من قديم كلَّ ما أراد من إظهار الحيرة والدهشة إزاء المصيبة الفادحة .

وممن بكى زوجته فى العصر الحديث بكاء حارا محمود سامى البارودى ، إذ ماتت شريكة حياته وهو منفىٌّ فى سرنديب فحُرِمَ أولاده أباهم وأمهم جميعا . واجتمع عليه بذلك أسى النفى والفقد وحرمان الأبناء ممن كانت أنسهم فى غيبته وأمنهم وسعادتهم ، ولم يلبث أن بث حسرته المتوقدة وحرقته المتأججة فى مرثية طويلة يقول فيها :

يا دهرُ فيم فجعتَنى بحليلةٍ كانت خلاصةَ عُدَّتى وعَتادى
إن كنتَ لم تَرْحَم ضَنَاىَ لبعدها أفلا رحمتَ من الأسى أولادى
أفْرَدْتهنَّ فلم ينَمْن توجُّعاً قَرْحَى العيون رواجفَ الأكبادِ
أَلْقَيْن دُرَّ عقودهن وصُغْنَ من دُرِّ الدموع قلائدَ الأجيادِ
يَبْكين من ولَهٍ فرَاق حَفيَّةٍ كانت لهنَّ كثيرة الإسعادِ
فخدودهن من الدموع نَدِيَّةٌ وقلوبهن من الهموم صوادى

ومنذ سنوات نشر كل من عزيز أباظة وعبد الرحمن صدقى ديوانا يرثى فيه زوجته فقد صهر الحزن قلبيهما ، وسعر فؤاديهما ، فسكبا الدموع ، وسرعان ما تحولت الدموع إلى ديوان شعر . وسمى عزيز أباظه ديوانه « أنات حائرة » وهى أنات

---

(١) أقلك : حملك .

نفس سعدت بالحياة الزوجية وفراديسها، ثم لم تلبث أن رُدّت إلى جحيم الفراق وهو فراق الأبد . ومن طريف أشعاره فيها قصيدة بعنوان «يوم ميلادى» يقول فى مطلعها :

أقول والقلبُ فى أضلاعه شَرِقٌ · بالدمع لا عُدْتَ لى يا يوم ميلادى
نزلتَ بى ودخيلُ الحُزْن يَعْصِفُ بى · وفادحُ البَثِّ ما ينفكُّ مُعْتادى
وكنتَ تحمل لى والشملُ مجتمعٌ · أُنْساً يَفيض على زوجى وأولادى
فانظر تَرَ الدار قد هِيضَتْ جوانبُها · وانظرْ تجِـد أهلَها أشباحَ أجسادِ
فقدتها خَلَّةً للنفس كافيةً · تكاد تُغْنى غناءَ الماء والزادِ
تحنو علىّ وترعانى وتبسط لى · فى غمرة الرأى رأىَ الناصح الهادى

وسمى عبد الرحمن صدقى ديوانه « من وحى المرأة » ولم تكن شريكة حياته فحسب، بل كانت أيضا شريكة عقله ودرسه . فاعتصر الحزن قلبه عليها ، وأوقد فيه نيرانا لا تهدأ من الحسرة والفجيعة، وصوّر ذلك لا فى قصيدة أو قصيدتين ، بل فى ديوان كله ألم وعذاب . ومن قوله فيها وقد حمَل إلى قبرها باقة من الزهر :

أيا زهرتى فى الترب بين المقابرِ · إليكِ حملتُ الزهر، شاهتْ أزاهرى[1]
حملتُ إليك الزهر ترويه أدمعى · وتذويه أنفاسى وحَرُّ زوافرى
قدمْتُ عليك اليوم أسوأ مَقْدَمٍ · سوادٌ بأثوابى سوادٌ بخاطرى
وخاتَمُ عُرْسى لا يُزَيِّنُ إصْبَعى · ولمحة وجهى غيرها فى التزاورِ
على قبرك المرموق أبـكى وأرتمى · وأجأر بالشكوى تشق مرائرى

ويطول بنا الحديث إذا أخذنا نعرض كل الطرائف التي بكى بها الشعراء والشواعر أهليهم وأقاربهم ومن أصفوهم حبهم . وإنما هذه نماذج لما صور به شعرنا الآلام والأوصاب التى حلت بأصحابه حين طرق الموت أبوابهم ، واختلس تحت أعينهم أفرادا من أسرهم وأقربائهم ورفاقهم .

---

(١) شاهت : قبحت

٣

ندب الشعراء أنفسهم

إذا كان الشعراء قد ندبوا أهليهم وذويهم فأولى لهم أن يندبوا أنفسهم حين تحين ساعة الموت ، ولا يجدون لهم ملجأ ولا عاصما ، وكثير ندبوا أنفسهم وبكوها منذ العصر الجاهلى ، ويقال إن أول من بكى على نفسه وذكر الموت على لسانه يزيد بن خذاق ، إذ قال :

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ ... أم هل له من حِمام الموت من راقِ

قد رجّلونى وما بالشّعر من شَعَثٍ ... وألبسونى ثيابا غير أخلاقِ [١]

وأرسلوا فتية من خيرهم حَسَبًا ... ليُسْنِدُوا فى ضريح القبر أطباقى [٢]

وطبيعى أن يندب الشعراء أنفسهم وهم يفارقون دنياهم من ورائهم إلى حفرة مظلمة . إنها ساعات ثم يخرج المشيعون من حولهم وورائهم ، يحملون نعوشهم إلى قبورهم ، ويدفنونهم فى لحودهم ويوارونهم التراب ويعودون ، ليُتم كل منهم دورته فى حياته .

وكانت تعظم المصيبة على الشاعر حين يجد نفسه غريبا عن وطنه ودياره ، وينزل به الموت ولا يجد مفرا من لقائه ، وينظر حوله ، فلا يجد أحدا من أهله ، فليس معه من سيشيعه ولا من سيحفر له لحده ، ولا من سيبكيه ويندبه . ومن خير من صور الألم لذلك مالكُ بن الرَّيْب الذى غزا فى خراسان ، فلما حضرته منيته ناح على نفسه قائلا :

ألا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةً ... بجنْبِ الغَضَا أُزْجى القِلاصَ النَّواجيا [٣]

---

(١) أخلاق : بالية .

(٢) أطباق : عظامى .

(٣) الغضا : شجر بنجد وأرض بها ، والقلاص : النوق ، والنواجى : السريعة .

فليت الغضا لم يقطع الركبُ عرضَهُ   وليتَ الغضا ماشىَ الركابَ لياليا
لقد كان فى أهل الغضا لودنا الغضا   مَزارٌ ولكنَّ الغضا ليس دانيا
فيا صاحِبَىْ رَحْلى دنا الموتُ فاحْفِرا   برابيةٍ إنى مقيمٌ لياليا
وخُطَّا بأطراف الأسنَّةِ مَضْجعى   ورُدَّا على عينىَّ فَضْلَ ردائيا
خُذَانى فجُرَّانى ببُرْدى إليكما   وقد كنت قبل اليوم صَعْباً قياديا
تفقَّدت من يبكى علىَّ فلم أجِد   سوى السيف والرمح الردينىِّ باكيا
وبالرَّمل منا نسوةٌ لو شهِدْنَنى   بكَيْن وفَدَّين الطبيبَ المداويا
عجوزى وأختاى اللتان أصيبتا   بموتى وبنتٌ لى تَهيج البواكيا
وما كان عهد الرمل منى وأهله   ذميا ولا بالرمل ودَّعتُ قاليا[1]
يقولون لا تَبْعَد وهم يدفنونى   وأين مكانُ البعد إلا مكانيا

والمرثية طويلة ، وكلها شكوى وبكاء وأنين ، لا من أجل الموت فحسب ، بل للموت البعيد فهو يموت غريبا عن الرمل وأهله ، لم تُغمض عينيه أمُّه ولا أختاه ولا بنته ولا زوجه ، وإنه ليذكر الغضا ذكرى مؤلمة ، إذ كان مكتمل الصحة والشباب يدفع النوق أمامه ، ولا وحدة ولا غربة . إنه يتمنى لو أنه لم يفارق الغضا ولا أهله ، إذن ما غالت خراسان هامته ، ولكنها الفتوح الإسلامية ، وهو يخرج مجاهداً فى سبيل الله مع المجاهدين ، وقد ترك وراءه أسرته قريرَ العين ، غير أن الفراق صعب ، ولم يكن يعلم حين ودعهم أنه الوداع الأخير . وتطيف به الرهبة من الموت ، كما يطيف به الحنين إلى الأهل ، فيبكى ويندب متأثراً تأثراعميقا ، إذا أشرفت حياته على النهاية ، وعما قليل توصد أحجار القبر دونه . ألا فلينشج ولينحْ ، إن القدر سيصرعه لا محالة .

ونمضى إلى العصر العباسى فنجد الشعراء يكثرون من نَوْح أنفسهم ، وخاصة أنهم يذكرون ذنوبهم فيخافون ربهم ، ويشفقون من لقائه ، فينطلقون وَجِلين معلنين التوبة والاستغفار مما قدمت أيديهم ، ولأبى نُوَاس :

(١) القالى : المبغض الكاره .

يا ربّ إن عظمتْ ذنوبى كثرةً فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ فبِمَنْ يلوذُ ويستجير المجرم
مالى إليك وسيلةٌ إلا الرّجا وجميلُ عفوك ثم إنى مُسْلِمُ

لقد أظلمت الدنيا وادلهمت فى عين أبى نواس حين نزل به ريب المنون ، ففزع إلى ربه يعلق به أمله ، ويرجو منه أن يُسْدل ثوب الغفران على ذنوبه وسيئاته التى اقترفها ، ويشمله بعفوه وإحسانه . ويكثر الشعراء العباسيون الذين صاحوا هذه الصيحات حين طرقت المنية دورهم ، ولأبى العتاهية هذا الدعاء :

إلهى لا تعذّبْنى فإنى مُقِرٌّ بالذى قد كان منّى
فمالى حيلةٌ إلا رجائى لعفوك إنعفوتَ وحُسْنُ ظنّى
وكم من زَلَّةٍ لى فى الخطايا وأنت علىّ ذو فَضْلٍ ومَنِّ
إذا فكّرت فى ندمى عليها عضضتُ أناملى وقرعت سِنّى
يظن الناسُ بى خَيْرا وإنى لشرُّ الخلق إن لم تَعْفُ عنى

وشاع بين الشعراء أن يكتبوا على شواهد قبورهم أبياتاً ، فيها أحيانا الدعاء ، وفيها أحيانا أخرى ذكر الموت والفناء وأن أحدا لا يقيم فى الدار الأولى ، بل الكل راحل ، ويقال إن أبا العتاهية أوصى بأن تُكتب على قبره هذه الأبيات الأربعة :

أُذْنَ حَىٍّ تسمَّعى اسْمَعى ثم عِى وعِى
أنا رَهْنٌ بمضجعى فاحذرى مثلَ مَصْرعى
عشتُ تسعين حِجَّةً ثم وافيتُ مضجعى
ليس شىء سوى التُّقَى فخُذِى منه أو دَعِى

وكانت هذه الكتابة على شواهد القبور منتشرة فى العالم الإسلامى كله ، ويروى أن ابن شُهَيد شاعر الأندلس المشهور أوصى أن يكتب على قبره فى لوح

رخامِ هذا النظمَ :

يا صاحبي قُمْ فقد أطلنا أنحن طول المَدَى هجودُ[1]؟
فقال لى : لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصَّعيد[2]
تذكرُ كم ليلةٍ لهونا فى ظلِّها والزمانُ عِيدُ
كلٌّ كأنْ لم يكن، تقضىّ وشؤمُهُ حاضرٌ عتيدُ[3]
يا ربِّ عفواً فأنت مَوْلَى قصّر فى أمرك العَبِيدُ

وهو يأسى على التحول إلى هذه الدار التى لا يقوم منها أهلها، فقد خُتمت بحجارة لا تُفَضّ حتى يوم البعث والنشور . ويذكر نعيمه فى دنياه ، ويراه كسحابة جادت ، وسرعان ما رحلت . ويفزع إلى ربه يطلب منه العفو والغفران. وأوصى ابن زُهْر الطبيب الأندلسى المعروف أن تكتب هذه الأبيات على قبره :

تأملْ بحقِّك يا واقِفاً ولاحِظْ مكاناً وقعنا إليهِ
ترابُ الضريح على وَجْنتى كأنىَ لم أمْشِ يوماً عليه
أداوى الأنام حذار المنون وها أنا قد صرتُ رَهْناً لديه

ويظهر أن الأندلسيين عُنوا بهذا الجانب، فكثير منهم نظموا أشعارا وكتبوها على قبورهم ، وأيضا كثير منهم نعوا أنفسهم حين توقعوا الموت ، وهتف بهم هاتفه ، وللسان الدين بن الخطيب يبكى نفسه :

بَعُدنا وإن جاورتنا البيوتُ وجئنا بوعظٍ ونحن صموتُ
وأنفاسنا سكنتْ دفعةً كجَهْرِ الصلاة تلاه القنوتُ

(١) هجود : نيام .
(٢) الصعيد : التراب .
(٣) عتيد : مهيأ .

وكنا عِظاما فصرنا عِظاما وكنا نقوت فها نحن قوتُ(١)

وفى كل مكان من العالم العربى نجد هذا الندب والنواح ، فالمأساة واحدة ، وكل يزيد فيها سطرا أسود حزينا .

ولعل شاعراً عربيًّا لم يرث نفسه ويبكيها، كما رثى فى عصرنا نفسه وبكاها أبو القاسم الشابّى الذى عصف به مرض القلب وهو فى ريعان شبابه ، فعاش يبكى نفسه ويندبها ندبا حارا لا فى مرثية أو مرثيتين ، وإنما فى ديوان حافل بألوان الشجى والأسى ، وصف فيه كيف أوصد المرضُ الأبوابَ والنوافذ عليه ، فلم يعد يرى إلا هاويته وحفرته . بل إن هذا المصير الذى لا بد وافد عليه ومنته إليه أصبح يطلبه ، إذ يرى فيه منجاته من أوصابه وآلامه ، وهو يسمى هذا المصير « الصباح الجديد » وفيه يقول :

اسكُتى يا جراح واسكنى يا شجون
مات عَهْدُ النواح وزمانُ الجنون
وأطلّ الصباح من وراء القرون

فساعة الخلاص قد دنت، وآن له أن يدفن آلامه ، ويُغرق أحزانه فى خضم اللانهاية فقد دعاه الصباح ، ولم يعد الظلام يستطيع أن يلف جسده فى ظلال الألم . إنه راحل وهو سعيد برحيله :

الوداعَ الوداع يا جبالَ الهموم
يا ضبابَ الأسى يا فِجاج الجحيم
قد جرى زورق فى الخضمّ العظيم
ونشرتُ القلاع فالوداع الوداع

وعلى هذه الشاكلة ما زال الشعراء قديما وحديثا يبكون أنفسهم ويدعون ربهم فى ساعات احتضارهم ، وحين يرون الستار يوشك أن يُسْدَلَ على قصة حياتهم.

(١) عظام الأولى : جمع عظيم ، والثانية : جمع عظم .

٤

ندب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الكريم

حينما أفل كوكب الرسالة الإسلامية الذى أضاء ما بين المشرق والمغرب هلع الصحابة رضوان الله عليهم ، وفزعوا لهذا النبأ المفجع ، وكاد عمر بن الخطاب أن لا يصدق ، لولا أن رَدَّه أبو بكر إلى صوابه . وخرج الصحابة يصلّون عليه ويشيعونه إلى مثواه العَطِر بقلوب واجفة وعيون باكية ، ويقال إن ابنته فاطمة كانت تندبه وتقول :

اغْبَرَّ آفاقُ السماء وكُوِّرتْ	شمسُ النهار وأظلم العصران[1]
فالأرضُ من بعد النبيِّ كئيبةٌ	أسفا عليه كثيرةُ الرجفان
فليَبْكِهِ شرقُ البـلاد وغربها	وليبكه مُضَرٌ وكلُّ يمانِ
وليبكه الطَّوْدُ المعظَّم جوّهُ[2]	والبيتُ ذو الأستار والأركانِ
يا خاتمَ الرسل المباركَ صِنْوُهُ[3]	صلَّى عليك منزّل القرآنِ

واستحالت المدينة المنورة إلى بركان يقذف بحمم الندب والبكاء ، واشتعلت نيران الحزن فى كل صدر وفى كل قلب ، لولا أن أخذ الصحابة يتلون فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون » « أفَئِنْ مِتَّ فهم الخالدون ، كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت » . فبدأت السكينة تنزل على نفوسهم ، وثابوا إلى رشدهم ليبلغوا رسالته المضيئة أطرافَ الأرض . وكان ممن ندبه فأحسن الندب حسّان ، وفيه يقول :

---

(١) كورت : سقطت ، والعصران : الغداة والعشى إلى احمرار الشمس .

(٢) الطود : الجبل ، وجوه : منخفضه .

(٣) الصنو : القريب والنظير .

بطَيْبَةَ رَسْمٌ للرسول ومَعْهَدُ مُنِيرٌ وقد تَعْفُو الرسوم وتهمَدُ(١)
ولا تَنْمَحِي الآياتُ من دار حُرْمَةٍ بها مِنْبَرُ الهادى الذى كان يَصْعَدُ
وواضحُ آثارٍ وباقى معالمٍ ورَبْعٌ له فيه مُصَلًّى ومَسْجِدُ
عرفتُ به رَسْمَ الرسول وعهده وقَبْراً به واراه فى التُّرْبِ مُلْحِدُ
فبورِكْتَ يا قبرَ الرسول وبورِكتْ بلادٌ ثَوَى فيها الرشيدُ المُسَدَّد
وبَكِّى رسولَ الله يا عينُ عَبْرَةً ولا أعرفنْك الدهرَ دمعُك يجمد
وجودى عليه بالدموعِ وأعْوِلى لفَقْدِ الذى لا مثلُه الدهرَ يوجَدُ
وما فَقَدَ الماضون مثلَ محمدٍ ولا مثلُه حتى القيامةِ يُفقَدُ

وقد أصبح القبر الكريم مسكا يتطيب به المسلمون كلما حجوا أو اعتمروا ، فهم يزورونه ويحجون إليه ليُغرقوا أبصارهم فى مشاهدته وقلوبهم فى رسالته . إنه النور الذى يغمر أفئدتهم والسعادة التى تملأ عقولهم . وإن زيارته لَحُلْمُ كلِّ مسلم ومسلمة .

ودارت بالصحابة دورات من الزمن ، ثم جاءت خلافة على بن أبى طالب زوج فاطمة بنت الرسول ، فانقسم المسلمون ، وقتل علىٌّ بطعنة آثمة من يد بعض الخوارج ، وأفضى الأمر إلى معاوية ، ورأى أن تكون الخلافة وراثة فى أبنائه . وأغضب ذلك طائفة كبيرة من المسلمين وخاصة أهل العراق ، وقالوا أين آل البيت ؟ وأين الحسين بن على حفيد رسول الله ؟ .

ولم تلبث عقيدة الشيعة أن ظهرت ظهوراً بينا ، كان لها جذور قديمة ، ولكنا لا نصل إلى عصر يزيد بن معاوية حتى ترتفع شجرتها ، وتتطور الحوادث ويصرع الحسين بن على وهو فى طريقه إلى شيعته بالكوفة بمكان يسمى « كَرْبلاء » ويُقْضَى على كل من تحدثه نفسه من أبنائه أن يطلب الأمر من دون القائمين عليه سواء أكانوا أمويين أم عباسيين .

وفى هذه الأثناء كان التشيع يتحول عقيدة ثابتة فى نفوس من والوا عليّاً

---

(١) تهمد : تبلى .

وأبناءه ، وكان الشعراء يكثرون من نظم المراثى فيهم. ومن أهم من نصب نفسه لهذه الغاية فى العصر الأموى الكُمَيْت شاعر زيد بن على بن الحسين : فله ديوان يسمى الهاشميات ، وكله سخط على بنى أمية ورثاء لآل البيت ، وأهم من رثاهم فى العصر العباسى دِعْبِل فى مرثيته المشهورة :

مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصاتِ

ويريد بالمدارس الأماكن التى يدرس فيها القرآن الكريم : فهذه المدارس عطلت كما عطل وعفا منزل الوحى النبوى . واستمر يذكر دور العلويين وأنها خلت وأقفرت من أهلها ، ثم أخذ يذكر قبورهم فى المدينة ومكة والكوفة وكربلاء ، وما زال حتى قال موجهاً الحديث إلى من يلومه فى تشيعه :

ملامَك فى أهل النبى فإنهم أحِبَّاىَ ما عاشوا وأهلُ ثقاتى
فيا ربِّ زِدْنى من يقينى بصيرةً وزِدْ حُبَّهم يا ربِّ فى حسناتى
بنفسىَ أنتم من كهولٍ وفِتْيَةٍ لفَكِّ عُناةٍ أو لحمل دِياتِ[1]
أحِبُّ قَصِيَّ الرِّحْم من أجل حُبِّكم وأهجر فيكم أسرتى وبناتى[2]
لقد حُفَّت الأيام حولى بشرِّها وإنى لأرجو الأمن بعد وفاتى
ولولا الذى أرجوه فى اليوم أو غدٍ لقَطَّع قلبى إثْرهم حسَراتى

والمرثية طويلة، وكلها على هذا النحو بكاء لأهل البيت ومحبة ووَجْد شديد ، وهذه المرثية العامة فى آل البيت كانت تقترن بها مراث خاصة كثيرة، والطريف فى هذه المراثى الشيعية أن شعراءها ينافحون فيها عن عقيدة . ومن أجل هذه الناحية البارزة فى تلك المراثى نجدها تمتاز بحيوية قوية ، إذ العاطفة فيها تتعمق الشاعر ، ومن هنا تصبح مشاعره فوارة حارة ، تقذف سيلا ملتهباً .

ويدور بنا الزمن وإذا بنا فى القرن الرابع للهجرة ، ويحقق العلويون لشيعتهم

---

(١) العناة : جمع عان وهو الأسير ، والديات جمع دية وهو المغرم الذى يدفعه من أجرم .
(٢) الرحم : القرابة .

شيئاً من حلمهم ، إذ يؤسسون الدولة الفاطمية بمصر والمغرب ، ويستولى بنو حمود العلويون على قرطبة من الأمويين ، ويصبح العراق وإيران تحت حكم البويهيين الشيعيين ، فلا تجفّ الدموع التى تنحدر من آماق الشيعة ، بل يجعلون لها مواسم معلومة ، كأن الدموع أصبحت رمز عقيدتهم ، وكأن الألم العنيف أصبح ترجمانها .

وكان أهم موسم للألم والدموع يوم عاشوراء ، وهو العاشر من المحرم ، الذى صُرع فيه قديماً الحسين فهذا اليوم كان يتحول إلى مأتم كبير فى كربلاء ، إذ يلبس الشيعة المسوح ويبالغون فى النوح واللطم والبكاء . ولا نصل إلى سنة ٣٥٢ للهجرة حتى يأمر معز الدولة البويهى حاكمُ بغداد أهلها بأن يغلقوا حوانيتهم ويعطلوا أسواقهم فى هذا اليوم احتفالا به ، ولم يأمرهم بذلك فحسب ، بل أمرهم أيضاً بأن يتخذوا المسوح السوداء وأن يبكوا وينوحوا فى طرقات البلد ، وأن تخرج النساء مشعثات الشعور مسوّدات الوجوه قد شققن ثيابهن ويدرن فى البلد بالنواح واللطم ! .

وهذا النواح الدائر على الحسين وآل البيت أنتج ما لا يحصى من مراث ، وهى مراث ملتاعة ولن نستطيع أن نعرض فى هذا الكتيب كل ما قيل من ذلك. واقرأ هذه الأبيات للشريف الرضى يبكى جده الحسين وينوح عليه :

يا قتيلا قوّض الدهرُ بهِ عَمَدَ الدين وأعلامَ الهُدَى
قتلوه بعد علمٍ منهمُ أنه خامس أصحاب الكِسَا[1]
مُرْهَقاً يدعو ولا غَوْثَ له بأب بَرّ وجَدّ مصطفى
وبأمٍ رفع الله لها علماً ما بين نسوان الوَرَى
أىُّ جَدّ وأبٍ يدعوهما ؟ جَدّ ، يا جَدُّ أغِثنى ، يا أبا
يا رسولَ الله يا فاطمةُ يا أمير المؤمنين المُرْتَضَى

---

(١) يشير إلى ما يروى من أن رسول الله التف فى كساء يمنى ببيت فاطمة ولف معه به عليا وفاطمة والحسن والحسين ، وقال : هؤلاء عترتى وأهل بيتى .

كيف لم يستعجل اللهُ لهم ... بانقلاب الأرض أو رَجْم السَّما[1]

حَمَلوا رأساً يصلّون على ... جَدِّه الأكرم طَوْعاً وإبَا

مَيِّتٌ تبكى له فاطمةٌ ... وأبوها وعليٌّ ذو العُلا

لو رسول الله يَحْيَى بعده ... قعد اليوم عليه للعزَا

ولا نرتاب فى أن بعض هذه الأبيات كان يصيح به الناس فى بغداد لحياة الشريف وبعد حياته . فكل بيت منها يثير ويحمس، بل يفجر الدموع أنهاراً . فلا غرو أن تعاقب الشيعة من عصر الشريف الرضى إلى عصرنا ينظمون المراثى فى الحسين ، وخاصة فى بلدة « النجف » بالعراق ، فلكل شاعر هناك مراثيه التى تفيض بالألم . ويشارك شعراء النجف غيرهم من شعراء العراق المعاصرين ، ولمحمد مهدى الجواهرى قصيدة عنوانها « آمنت بالحسين » يقول فيها :

فيابْنَ البَتول وحسبى بها ... ضماناً على كل ما أدّعى[2]

ويابن التى لم يَضَعْ مثلها ... كمثلك حَمْلًا ولم تُرْضِع

ويابن البطين بلا بِطْنَةٍ ... ويابن الفتى الحاسر الأنْزع[3]

ويا غُصْنَ هاشمَ لم ينفتح ... بأزهرَ منك ولم يُفرِعِ[4]

ويا واصلا من نشيد الخلود ... ختام القصيدة بالمطْلع

يسير الورى بركاب الزما ... ن من مستقيم ومن أظْلعِ[5]

---

(١) الرجم : الرمى بالحجارة .

(٢) البتول : فاطمة الزهراء .

(٣) البطين : من صفات على بن أبى طالب ، ويقول إنه بطين بلا بطنة أى بلا شره ولا نهم ، والحاسر : الأنزع الذى انحسر شعره عن جانبى جبهته .

(٤) يفرع : يخرج من فرع .

(٥) أظلع : أعرج .

وأنت تسيِّرُ رَكبَ الخلو د ما تستجدُّ له يَتْبَعِ

وعلى هذا النحو لا يزال مصرع الحسين حتّى عصرنا يوحى لشعراء الشيعة بمراث هى الغاية فى الحزن الممض والألم المحرق .

٥

ندب الدول

الدول العربية التى سقطت فى خـــلال التاريخ الوسيط كثيرة ، وقد كانت الدولة العربية زمن بنى أمية تشمل العالم الإسلامى كله ، وما غربت هذه الدولة فى أفق التاريخ وبزغت الدولة العباسية ، حتّى تراءى للعين أن الخيط الذى يضم هذا العالم ويربط بينه خيط واهن . وسرعان ما طمع الولاة فى الأطراف ، وطمحوا إلى الاستقلال ، ونشأت القوميات فى الغرب والشرق ، فإذا العالم الإسلامى دول لا تكاد تحصى . وما يرتفع نجم دولة ويبلغ عنان السماء ، حتّى يميل إلى الغروب ، ولا تقوم دولة ويشتد ساعدها ، حتّى تشيخ وتهرم وهى لا تزال فى شبابها . وكأنهم لم يستطيعوا أن ينسوا أيامهم وحروبهم وتقسُّمهم قبائل فى الجاهلية ، فأعادوها جَذَعةً منذ العصر العباسى ، بل من قبله ، لولا قوة الأمويين وحُسْن تدبيرهم . وما كاد العباسيون يستولون على العرش حتّى بدا التصدّع واضحاً فى بناء الدولة ، وأخذ العرب لا يطمئنون ولا يهدءون فى صُقع من أصقاع العالم الإسلامى وأخذت الدول تقوم ثم تسقط متعاقبة ، وكثير من الدول كان يشيع بالعبرات وأشعار الشعراء .

وأول دولة بكاها الباكون دولة بنى أمية التى سقطت سنة ١٣٢ للهجرة ، وأهم من بكاها أبو العباس الأعمى الشاعر المكّى الذى أخذ يرسل دمعه على خلفائها ، ويئن لهم ولدولتهم أنيناً ، وفيهم يقول :

ليت شعرى أفاحَ رائحةُ المِسْـ لكِ وما إن أخال بالَخيْف[1] إنسى
حين غابت بنو أميّـة عنهُ والبهاليلُ من بنى عبد شمسِ[2]
خطباءٌ على المنابر فُرْسا نٌ عليها وقالة[3] غير خُرْسِ

وله فيهم أشعار ومراث أخرى ، وهى كلها تفيض بالعاطفة الصادقة .

ونمضى فى العصر العباسى ، وإذا بهرون الرشيد ينكب البرامكة نكبتهم المشهورة ، وكانوا قد استولوا على كل مرافق الدولة ، وعظم سلطانهم ، وجمعوا الشعراء من حولهم يغدقون عليهم عطاياهم ، فلما دالت دولتهم وقف الشعراء يبكونهم ويسفحون الدمع عليهم ، وفيهم يقول أشجع :

كأنما أيامُهم كلُّها كانت لأهل الأرض أعيادا

ويقول سلم الخاسر :

هوَتْ أنجمُ الجَدْوى[4] وشلَّتْ يدُ النَّدى وغاضتْ بحورُ الجود بعد البرامكِ
هوت أنجمٌ كانت لأبناء برْمكٍ بها يعرف الحادى طريق المسالكِ

ويقول الرّقاشىّ ، وقد ذكر الفضل وأخاه جعفرا :

ألآنَ استرحنا واستراحتْ ركابُنا وأمسك من يُجْدِى ومن كان يجتدى[5]
فقلْ للمطايا قد أمِنتِ من السُّرَى وطىِّ الفيافى فدْفدًا بعد فدْفدِ[6]

---

(١) الخيف : ما انحدر من الجبل ، وبمكة أخياف مختلفة لكثرة الجبال حولها ، وكلها تنتهى إلى بطائحها .

(٢) البهاليل : جمع بهلول وهو السيد ، وبنو عبد شمس : بنو أمية ، وعبد شمس : أحد أجدادهم فى الجاهلية .

(٣) قالة : جمع قائل .

(٤) الجدوى : العطاء .

(٥) يجدى : يعطى ، ويجتدى : يستعطى ويستمنح .

(٦) الفدفد : الفلاة .

وقُلْ للمطـايا بعد فَضْلٍ تعطّلى وقل للرزايا كُلَّ يوم تجدّدى
وقل للمنـايا قد ظفرتِ بجعفرٍ ولن تظفرى من بعـده بمسوّدِ

ونُظم فى البرامكة شعر كثير ، وخاصة لأن الشعراء من الفرس بكوا فيهم زوال السلطان من أمتهم وتحوله إلى غيرهم .

ولما قتل المتوكل الخليفة العباسى المشهور نزل الحزن بقلب شاعره البحترى ، وكان قد قتله ولىُّ عهده وطائفة من الترك الذين استكثر منهم المعتصم ، واستبدل بهم العرب والفرس جميعاً ، ولم يلبثوا أن سيطروا على الدولة .

وفكر البحترى فيما صارت إليه الدولة من ذلك ، وفكر فى الفرس وما قدموه لها من خدمات ، فهم الذين أقاموها ، وهم الذين رعوها خير رعاية ، حتى إذا أفل نجمهم أخذت الدولة تنتكس نحو مغربها . ومرّ البحترى بالمدائن ورأى إيوان كسرى : «قصره الأبيض» وما بقى من أطلاله ورسومه ، فوصفه وصفاً بليغاً رثى فى أثنائه صانعيه وندبهم ، ومن قوله فيهم وفيه :

حضرتْ رَحْلِىَ الهمومُ فوجّهْـ ـتُ إلى أبيض المدائن عَنْسِى (١)
أتسلى عن الحظوظ وآسَى لمحلٍّ من آل ساسانَ دَرْسِ (٢)
ذكّرتنيهمُ الخطوبُ التّوالى ولقد تذكرُ الخطوبُ وتُنْسِى (٣)
وهمُ خافضون فى ظلّ عالٍ مُشْرِفٍ يُحْسِرُ العيون ويُخْسِى (٤)
وكأن الجِرْماز من عَدَم الإنـ ـسِ وإخلاله بنيّةُ رَمْسِ (٥)
لو تراه علمتَ أن الليالى جَعَلَتْ فيه مأتماً بعد عُرْسِ

---

(١) العنس : الناقة القوية .

(٢) آسى : أحزن ، وآل ساسان : أكاسرة الفرس ، ودرس : دارس وعاف .

(٣) التوالى : المتتالية .

(٤) خافضون : راغدو العيش ، والعالى : القصر الأبيض ، ويحسر : يضعف ، ويخسى : يؤلم .

(٥) الجرماز : بناء بجوار القصر ، والرمس : القبر .

ونقل بعد ذلك نقلا بديعاً صورة رآها منقوشة على حيطان الإيوان ، وهى تصور معركة بين الفرس والروم ، انتصر فيها الأولون . ثم استمر يصور أيادى الفرس على العرب ويبكيهم .

وما زال العباسيون يعانون من الترك وغيرهم حتى غزا هولاكو بغداد وخرّبها ، وأزال خلافتهم ورمى بها وبالتاريخ الباهر العظيم فى دجلة ، فبكى الشعراء من الأعماق ، ومن خير من بكى وناح شمس الدين الكوفى ، وفيهم يقول بأحدى مراثيه :

ما للمنازل أصبحتْ لا أهلُها أهلى ولا جيرانُها جيرانى
أين الذين عهدتُهم ولعزِّهم ذُلاًّ تَخِرُّ معاقد التيجانِ
كانوا نجومَ من اقتدى فعليهمُ يبكى الهدى وشعائرُ الإيمانِ
أفنتهمُ غِيَرُ الحوادث مثلما أفنتْ قديمًا صاحب الإيوان[1]
ما زلت أبكيهم وألثم وحشةً لجالهم متهدِّم الأركانِ
حتى رَثَى لى كلُّ مَنْ ماوَجْدُهُ وَجْدِى ولا أشجانه أشجانى

ومن الدول التى أكثر الشعراء من بكائها والنواح عليها دول ملوك الطوائف بالأندلس فإنهم لما استغاثوا بيوسف بن تاشفين ملك المرابطين فى المغرب ضد الأسبان الشماليين فى بلادهم ، ورأى ما هم فيه من ضعف ووهن شديد ، فكر فى الاستيلاء عليهم حتى يحفظ للإسلام والعرب هذا الجزء الذى يكاد يتداعى ، ولم يلبث أن التقمهم ملكاً وراء ملك ودولة وراء دولة .

وشيّع شعراء الأندلس هذه الدول بالعبرات الغزار ، إذ كانوا يرعونهم خير رعاية ، وأهم الدول التى رثوها وبكوها دولة بنى الأفطس فى بَطَلْيَوْس ودولة بنى عباد فى إشبيلية . أما الأولى فرثاها ابن عبدون بقصيدة طويلة طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

---

(١) يشير إلى إيوان كسرى .

الدّهرُ يفجعُ بعـد العَيْنِ بالأَثَرِ ... فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّوَرِ (١)

ماالليالى ؟ أقال الله عَثْرَتَنَـا ... من الليالى وخانتْها يَدُ الغِيَرِ (٢)

واسترسل يتحدث عن الدول التى دالت من الأكاسرة والعرب فى عصورهم المختلفة حتى انتهى إلى بنى الأفطس فندبهم بمثل قوله :

بنى المظفّر والأيامُ . ما بَرِحتْ ... مراحلاً والوَرَى منهـا عَلَى سَفَرِ

سُحْقاً ليومكمُ يوماً ولا حملتْ ... بمثله ليـلةٌ فى غابر العُمُرِ (٣)

وأما دولة بنى عباد ، فلعل خير من تفجع عليها ابن اللّبَّانة ، وقد حمل يوسف بن تاشفين المعتمدَ بن عباد آخرَ ملوكها مقيداً فى أغلاله مع من بقى من أسرته إلى أَغْمات بالقرب من مراكش . ووقف ابن اللبّانة نفسَه على بكائه وبكاء أسرته ، وله قصيدة بديعة يصف فيها خروجه من إشبيلية محمولا على سفن ابن تاشفين بنهر الوادى الكبير الذى يجرى أمام بلدته ، وفيها يقول :

تَبْكى السماء بمُزْنٍ رائحٍ غادِ ... على البهـاليل من أبناء عَبّادِ (٤)

على الجبال التى هُدَّتْ قواعدُها ... وكانت الأرضُ منهم ذاتَ أوتادِ (٥)

يا ضيفُ أَقْفَرَ بيتُ المكرمات فخُذْ ... فى ضمِّ رَحْلك واجمع فضلة الزادِ

ويا مؤمِّل واديهـم ليسكُنَهُ ... خَفَّ القَطِين (٦) وجَفَّ الزَّرْعُ بالوادى

نسيتُ إلا غداة النهر كَوْنَهُمُ ... فى المنشآت كأمواتٍ بألحادِ (٧)

---

(١) من أمثال العرب : لا تطلب أثراً بعد عين ، وما البكاء : ماذا يفيد البكاء .

(٢) الغير : أحداث الدهر .

(٣) سحقا : بعدا ، الغابر هنا : المستقبل .

(٤) المزن : السحاب الممطر ، والبهاليل : السادة .

(٥) الأوتاد : الجبال ، يقول إنهم كانوا أوتاد الدول فى الأندلس كما أن الجبال أوتاد الأرض.

(٦) القطين : السكان .

(٧) المنشآت : السفن ، والألحاد : القبور .

والناسُ قد ملأوا العِبْرَيْنِ واعتبروا من لؤلؤٍ طافياتٍ فوق أزبادِ[1]
حُطَّ القناع فلم تُسْتَرْ مُخَدَّرَةٌ ومُزِّقَتْ أوجهٌ تمزيق أبرادِ[2]
حانَ الوداع فضجَّتْ كلُّ صارخةٍ وصارخٍ من مُفَدَّاةٍ ومن فادِ
سارت سفائنهم والنوح يَصْحَبُها كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دَمْعٍ وكم حملتْ تلك القطائع[3] من قِطْعَات أكبادِ

وما نظن شاعراً استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه ابن اللبانة فى بكاء الدولة العبادية فقد اقتطع بكاءه عليهم من فؤاده .

وعلى نحو ما بكى شعراء الأندلس دول الطوائف ببلادهم بكى شعراء مصر بعض الدول التى لمعت ثم أفلت فى أفقهم ، وأول دولة إسلامية بكوها دولة الطولونيين ، وفيهم يقول بعض الشعراء :

كانوا مصابيحا لدى ظُلَمِ الدُّجى يَسْرِى بها السَّارُون فى الإدلاجِ[4]
انظر إلى آثارهم تَلْقَى لها عَلَماً بكل ثَنِيَّةٍ وفجاجِ[5]

ولما زالت الدولة الفاطمية بكى عمارة اليمنى عليها بكاء ، فيه لذع وحرارة ، وتلك قطعة من بكائه عليهم وندبه لهم :

رميتَ يا دَهْرُ كفَّ المجد بالشَّلَلِ وجِيدَهُ بعد حُسْنِ الحَلْى بالعَطَلِ[6]
هدمتَ قاعدة المعروف عن عَجَلٍ سُقِيت مُهْلاً[7] أما تمشى على مَهَلِ

---

(١) العبرين : ضفتى النهر ، واعتبروا : تعجبوا .

(٢) الأبراد : الثياب ، وهو هنا يصور نساء بنى عباد وما صنعنه أثناء الرحيل من سفور ولطم للوجوه وخمش لها بالأظافر .

(٣) القطائع : السفن .

(٤) الإدلاج : السير بالليل .

(٥) الثنية : الطريق فى الجبل ومثلها الفج وجمعه فجاج .

(٦) العطل : التجرد من الحلى .

(٧) المهل : النحاس المذاب ، وهو من عذاب أهل النار المذكور فى القرآن .

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب النار غَيرُ وَلِى
أئمة خُلِقوا نوراً فنورُهم من نور خالص نور الله لم يفِلِ[١]

وكان حريا بعمارة أن يفرح كما فرح المصريون بزوال الدولة الفاطمية وتحول السلطان إلى صلاح الدين الذى أنقذ مصر من براثن الانحلال الذى انتهت إليه هذه الدولة . وما نشك فى أن تشيع عمارة للفاطميين هو الذى جعل على بصره غشاوة ، فلم يشارك المصريين فى أفراحهم بسقوط تلك الدولة . ونمضى بعد الأيوبيين إلى المماليك إذ يقضى عليهم السلطان سليم العثمانى سنة ٩٢٣ للهجرة ، ونرى ابن إياس يصيح لزوال دولتهم :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جرى من حادثٍ عَمّتْ مصيبتُه الوَرَى
زالتْ عساكرها من الأترَاكِ فى غُمْض العيون كأنها سِنَةُ الكَرَى

وتحكم مصر بعـــد ذلك بالعثمانيين حكماً جائراً كله بطش واستبداد واستنزاف لخيراتها ودمائها ويزولون كما زالت الأسرة العلوية بعدهم . وطبيعى أن لا يبكى العثمانيين ولا الأسرة العلوية باكٍ فقد ذهبوا غير مأسوف عليهم بل ذهبوا مع فرح الشعب العميق بزوالهم لما أشاعوا من ظلم وفساد فى الحكم وبغى وطغيان شديد .

---

(١) يفل : يأفل ويغرب .

٦

ندب البلدان

وإذا كان الشعراء بكوا بعض الدول الزائلة فإنهم بكوا أيضاً البلدان حين نزلت بها الحوادث القاصمة ، أو ألمت بها بعض الدول الغاصبة . وفي كل مكان من العالم الإسلامى تجد هذا البكاء ، فى الشرق والغرب . أما فى الشرق فلعل أول بلدة حاقت بها كارثة ساحقة هى بغداد ، إذ حرقها ابن طاهر قائد المأمون أثناء حصاره لأخيه الأمين ، فقد سلط عليها مجانيقه ، فتحولت ناراً أتت على كل شىء فيها ، وكأن قصورها التى طالما أشاد بها الشعراء لم تكن شيئا مذكورا . وأثرت هذه الحادثة المفجعة فى قلوب كثير من الشعراء، فقال بعضهم يندبها ويبكيها :

بكتْ عينى على بغداد لمَّا ... فقدتُ غضارةَ العيش الأنيقِ

أصابتْها من الحُسَّاد عَيْنٌ ... فأفنتْ أهلها بالمنجنيقِ

فقومٌ أُحرِقوا بالنار قَسْرا ... ونائحةٌ تنوح على غَرِيقِ

وصائحةٌ تنادى واصحابى ... وقائلةٍ تقول أيا شقيقى

ومغتربٌ بعيدُ الدار مُلْقًى ... بلا رَأْسٍ بقارعةِ الطريقِ

ولا ولدٌ يعوج على أبيهِ ... وقد هرَب الصديق عن الصديقِ

وليست بغداد وحدها التى بكاها الشعراء فى العصر العباسى فقد بكوا البصرة حين اقتحمها الزَّنْج على سُكَّانها، ويظهر أنهم كانوا يسومونهم الخسف والعذاب ويكلفونهم من العمل فوق ما يطيقون ويحتملون، فائتمروا بهم ، وما هى إلا أن ثاروا عليهم ، فقتلوهم وخربوا ديارهم وباعوهم فى الأسواق بيع العبيد . وأثَّر ذلك فى نفس ابن الرومى تأثيراً بليغا ، فنظم قصيدة طويلة فى بكاء البصرة وأهلها يقول فيها :

كم أغصُّوا من شاربٍ بشرابٍ　　كم أغصُّوا من طاعمٍ بطعام
كم ضنينٍ بنفسه رام مَنْجًى　　فتلقَّوا جَبينه بالحسام
كم أخٍ قد رأى عزيز بنيهِ　　وهو يُعْلَى بصارمٍ صمصامِ
كم رضيع هناك قد فطموه　　بشَبَا السيف قبل حين الفطام
كم فتاةٍ بخاتم الله بكرٍ　　فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونةٍ قد سَبَوْها　　بارزا وَجْهُهَا بغير لثامِ
صبَّحوهم فكابدَ القوم منهم　　طولَ يوم كأنه ألف عامِ

وصوَّرَ تحريق الزنج لقصور البصرة ، وبكى رسومها وأطلالها ومسجدها ، واستنجد المسلمين واستغاث بهم على نصرتها ، ودعاهم أن ينفروا خِفافاً وثِقالا ، حتى ينتقموا منهم شر انتقام .

ونمضى إلى عصر الحروب الصليبية فنجد الشعراء يبكون مدن الشام التى كانت تسقط فى أيدى الصليبيين ، ولم يبكوا مدينة كما بكوا بيت المقدس حين استولى عليها الفرنج سنة ٤٩٢ للهجرة ، ومن طريف ما قيل فيها :

أحلَّ الكفرُ بالإسلام ضَيْماً　　يطول عليه للدين النحيبُ
فحقٌّ ضائعٌ وحِمًى مُبَاحٌ　　وسيفٌ قاطعٌ ودَمٌ صَبِيبُ(١)
وكم من مسلم أمسى سليباً　　ومسلمةٍ لها حرمٌ سليبُ
أما لِلهِ والإسلام حَقٌّ　　يدافع عنه شُبَّانٌ وشيبُ

على أن موجة الصليبيين لم تلبث أن دُفعت بقوة إلى الوراء ، ولم تلبث أن حلت أشعارُ الفتح والظفر محل أشعار الندب والرثاء .

ومن البلاد التى بكاها المسلمون صقلية حين سقطت فى أيدى النورمان حول منتصف القرن الخامس للهجرة ولشاعرها ابن حمديس قصائد مختلفة يرثيها فيها ويندبها ، ومن قوله فى بعض قصائده :

(١) صبيب : سائل

أرى بلدى قد سامه الرومُ ذلةً   وكان بقومى عِزُّه متقاعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه   فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا

وفى نفس التاريخ هاجم البدو القيروان وخربوها ، وبكاها شعراؤها هى الأخرى ، ومن قول شاعرها ابن شرف :

آهِ للقيروان أنَّةَ شَجْوٍ   عن فؤادٍ بجاحم الحزن يَصْلَى
حين عادتْ به الديار قبوراً   بل أقول الديار منهن أخْلَى
بعد يومٍ كأنما حُشِرَ الخَلْ   قُ حُفاةً به عوارىَ رَجْلَى
مُزِّقوا فى البلاد شرقاً وغرباً   يسكبون الدموع هَطْلاً ووَبْلا

ولعل قطرا إسلاميا لم تُبْكَ بلدانه ومدنه كما بُكيت مدن الأندلس وبلدانها ، فقد أخذ الأسبان الشماليون يستخلصونها لأنفسهم ، وأخذت تتساقط منذ عصر ملوك الطوائف فى حجورهم كما تتساقط أوراق الخريف . وكانت كل مدينة تسقط لا تعود أبداً ، والمسلمون يرون ذلك رأى العين ، يرون ما يهدد ديارهم من غزو ودمار ، وكلمتهم متفرقة وأهواؤهم غير مجتمعة ينابذ الأخ أخاه وتنابذ المدينة أختها ، والعدو على الأبواب يتربص بهم الدوائر . وما زال الشعراء هناك يحذرون وينذرون ويستغيثون ويستنصرون ، وكلما ضاعت بلدة أو مدينة ذرفوا الدموع حارة سخينة . ومن البلدان التى أكثر الشعراء من رثائها وندبها حين استولى عليها الأسبان طُلَيْطُلَة وبَلَنْسِيَة وشاطبة وقُرْطبة وجَيَّان وإشْبيلِيَة ، ومن أروع ما بُكيت به الأخيرة قول أبى البقاء الرُّنْدىّ ، وقد عرض لما سُلب من البلاد قبلها :

اسألْ بَلَنْسِيَةً ما شأنُ مُرْسِيَةٍ   وأين شاطبةٌ أم أين جَيَّانُ
وأين قرطبةٌ دار العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شانُ
وأين حِمْصٌ[1] وماتحويه من نُزَهٍ   ونهرُها العذبُ فياضٌ وملآنُ

---

(١) حمص : إشبيلية .

بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم   واليوم هم فى بلاد الكفر عُبْدَان
ورُبَّ أمٍّ وطِفلٍ حيل بينهما   كما تفرّقُ أرواحٌ وأبْدَانُ
وطفلةٍ مثل حُسْنِ الشمس إذ طلعتْ   كأنما هى ياقوتٌ ومَرْجانُ
يقودها العِلْجُ[1] للمكروه مكرَهَةً   والعين باكيةٌ والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمَدٍ   إن كان فى القلب إسلامٌ و إيمانُ

ويدور الزمن بنا دورات حتى نصل إلى العصر الحديث ، فإذا القصة تعاد فصولها ، وإذا أوربا الشرقية تجمع أمرها أمام الخلافة التركية تريد أن تخرجها من ديارها ، وتردها إلى آسيا على أعقابها وتكون حروب ودماء . وتُغْلَبُ تركيا على أمرها من حين إلى حين ، وتضيع بعض بلدانها . ولشوقى قصيدة يبكى فيها « أدِرْنَة » حين استولى عليها البلغار سنة ١٩١٢ للميلاد ، وقد سماها الأندلس الجديدة ، إشارة إلى أن الكارثة فيها تجديد لكارثة المسلمين فى الأندلس العربية ، فهما جرحان ، جرح قديم لم يلتئم بعد ، وجرح لا يزال ينزف بالدماء . وفى هذه القصيدة يقول :

عيسى سبيلُك رحمةٌ ومحبَّةٌ   فى العالمين وعصمةٌ وسلامُ
اليوم يَهْتِفُ بالصليب عصائبٌ   هم للإله وروحِه ظُلَّامُ[2]
خلطوا صليبك والخناجر والمُدَى   كلٌّ أداةٌ للأذى وحِمَامُ
أو ما تراهم ذبَّحوا جيرانهم   بين البيوت كأنهم أغنام
كم مُرْضَعٍ فى حِجْرِ نعمته غدا   وله على حَدِّ السيوف فِطامُ
وصبيَّةٍ هُتِكَتْ خميلةُ طُهْرِها   وتناثرتْ عن نَوْرِهِ الأكمامُ[3]
وأخى ثمانينَ استُبِيحَ وقارُهُ   لم يُغْنِ عنه الضعفُ والأعوامُ

---

(١) العلج : الكافر من العجم .
(٢) العصائب : جمع عصابة وهى الجماعة ، وظلام : جمع ظالم .
(٣) الخميلة : الروضة والشجر الملتف .

ولما نكب الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٦ وسلطوا عليها مدافعهم وقذائفهم ، وأحالوها أنهارا من الدم وتلالا من الرماد والخراب بكاها شوقي بقافيته المشهورة ، وفيها يقول :

رباعُ الخُلْد وَيْحكَ ما دهاها أحقٌّ أنها دَرَسَتْ أحَقُّ
وهل غُرَفُ الجِنانِ منضَّدات[1] وهل لنعيمهن كأمْسٍ نَسَقُ
وأين دُمَى المقاصر من حِجالٍ[2] مُهتَّكةٍ وأستارٍ تُشَقُّ
بَرَزْنَ وفى نواحى الأَيْكِ[3] نارٌ وخلفَ الأَيْكِ أفراخٌ تُزَقُّ
بليلٍ للقذائف والمنايا وراء سمائه خَطْفٌ وصَعْقُ
إذا عَصفَ الحديدُ احمرَّ أفْقٌ على جنباته واسودَّ أفقُ
وللحرِّية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرَّجةٍ يُدَقُّ

وتجاوبت مع شوقى وشعراء العروبة فى الشرق صيحاتُ إخوانهم شعراء المهجر فى الغرب ، يبكون ويصيحون ويولولون على ما أصاب دمشق من فظائع الفرنسيين ، ولنسيب عَريضة من منظومة :

صليلُ سلاحٍ وقَرْعُ طبولْ وجُنْدٌ قُساةٌ تسوق الحمولْ
وفوق النياق حماةُ القَبيلْ تدلَّوْا قتيلاً بجنب قَتيلْ

ولعل بلدا عربيا فى عصرنا لم يبكه الشعراء كما بكوا فلسطين الشهيدة ، التى سالت دماء أبنائها فى ساحاتها ، وشرّد اليهودُ البقيةَ الباقية منهم فى أطراف العالم العربى وعلى المشارف والحدود . ولا تزال المأساة ، أو قل لا يزال مأتمها قائماً ، والعالم الإسلامى كله يلبس السواد من أجلها ، ويعلن الحداد على ما أصابها وأصاب العرب فيها .

---

(١) منضدات : منسقات .
(٢) المقاصر : الغرف ، والحجال : جهاز العروس .
(٣) الأيك : الشجر الكثير المتجمع .

ومنذ وَعْد « بلفور » لليهود والعرب ينتظرون اليوم المشئوم، يوم خروج أبناء عمومتهم من ديارهم ، وهو ما لم يحدث فى العالم لا قديما ولا حديثا ، فلم نسمع قبل اليوم أن أمة بغت على أخرى ، وسلبتها وطنها وخلدها وفراديسها ، يعينها فى ذلك من يتشدقون بالحريات . وحزّ ذلك فى أنفس العرب فأبوا أن يتركوا عرينهم دون أن يلطخوه بالدماء ، وتعاقدت دولهم ، وخاضت غمار حرب رجفت لها الأرض والسماء ، وقد تعالى فى أثنائها صياح الشعراء فى البلاد العربية ، من مثل قول على محمود طه من قصيدته « نداء الفداء » :

أخى جاوزَ الظالمون المدَى فحقَّ الجهادُ وحقَّ الفِدا
أنتركهم يغصبون العرو بة مَجْدَ الأبوّة والسُّؤْدَدَا
وليسوا بغير صليل السيوفِ يجيبون صوتاً لنا أو صدَى
فجرِّدْ حسامك من غِمْدهِ فليس له بَعْدُ أن يُغْمَدَا

والقصيدة كلها على هذا المنوال صراخ فى العرب حتى يسارعوا لنجدة فلسطين التى تَلّها اليهود للجبين ، وهم يشحذون لها مُداهم على أعين العرب من مسلمين ومسيحيين .

ومنذ وقعت هذه الحرب المشئومة وخرج أهل فلسطين من ديارهم ، وشعراء العرب فى مختلف بلدانهم يبكون الوطن الضائع ، ويتفجعون عليه ، فهذا زكى المحاسنى يهتف فى دمشق :

ما هُزِمنا لكى نموت ونفنى ونُبكّى الحياة إن نحن عِشْنا
نحن قومٌ ما نام فينا على الضيْـ ـمِ أبِيٌّ ولا مَلّ الدهر هُنّا
كفكف الشعرَ عن مراثى فلسطـ ـينِ فنَشِرُ الدماء أبقى وأغْنَى
غدُنا المرتجى كما رمتَ آتٍ بانتقامٍ سيغسل العار عنّا

ويرتفع هتاف الشعراء فى كل مكان ، فمن ذلك قول عادل الغضبان فى قصيدة له دعاها : « صوت العرب » :

كفاكَ يا غَرْبُ طغياناً ومفسدةً ورَمْيُك الشرقَ بالويلات والحرَبِ
هذى فلسطينُ ما زالت مضرَّجةً أرجاؤها بدمٍ فى الله منسكبِ
شرَّدتَ أبناءها ظلماً وسقتهمُ إلى الرَّدى عُصَباً تُلْقَى على عُصَبِ
فلا الأذانُ ولا الناقوس يُسمعنا وحىَ الهدى فى فم الإسلام والصُّلُبِ

ويقول محمد عبد الغنى حسن من قصيدة طويلة :

أرضَ البطولة هذه عبراتى تُهْدَى إليكِ وهذه حسراتى
دهمتْك من عُصَب الزمان بطانةٌ أفَّاقةٌ منهومةُ الشهواتِ
لا تستقرّ على الثرى أحداقُهم إلا على العَدْوات والغارات
كانوا على الإسلام منذ قيامه حرباً وكانوا مبعث النكبات

ولفدوى طوقان قصيدة بعنوان « بعد الكارثة » تتفجع فيها على الوطن السليب ، ومن قولها فيها :

يا وطنى ما لك يُخْنى على روحك معنى الموت معنى العَدَمْ
جرحُك ما أعمق أغواره كم يتنزَّى تحت ناب الألم
ستنجلى الغمرةُ يا موطنى ويمسح الفجرُ غواشى الظُّلَم
والأملُ الظامئ مهما ذَوَى لسوف يُرْوَى بلهيبٍ وَدم

ونحن نأمل معها أن تنكشف هذه الغمة سريعاً عن صدر فلسطين ، وأن تعود إلى أبنائها مشرقة الجبين ، لم تزدها المحنة التى ألمت بها وصهرتها صهراً إلا قوة فوق قوة وقدسية فوق قدسية . إنه الصباح الذى ينتظره العرب جميعاً ، وإنهم لواصلون إليه مهما دجت الدنيا ومهما طال الطريق .

الفصل الثاني

التأبين

١

معنى التأبين

أصل التأبين الثناء على الشخص حيا أو ميتا ، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط ، إذ كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت ، فيذكروا مناقبه ، ويعدّدوا فضائله، ويُشهروا محامده . وشاع ذلك عندهم ، ودار بينهم ، وأصبح فى سننهم وعاداتهم ، ولو لم يقفوا على القبور كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين .

ونحن نجده دائرا على ألسنة الرجال والنساء ، فهم جميعا لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين ، بل يضيفون إليه إشادة بالميت ومناقبه ، كأنهم لا يبكونه فقط من أجل رابطة الدم التى تربطهم به ونزوله وراء أستار وأحجار ، بل هم يبكون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية ، يبكون فيه الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإغاثة الملهوف والحلم والأنفة والحزم وركوب الصعاب والسماحة والفصاحة والسيادة والشرف وكل ما يزين الرجل فى رأيهم من صفات وخلال.

وكأنما كان غرضهم من تأبينهم أن يصوروا تصويرا تاما مدى الخسارة والمصيبة فى الفقيد . ونرى هذا واضحاً فى تأبين الخنساء لأخويها صخر ومعاوية، فهى تندبهما بقلب محترق من جهة ، وهى تؤبنهما لتصور فضائلهما وتوضح ما خسرته فيهما قبيلتهما .

وكان من عقائدهم أن القتيل لا يهدأ فى قبره ، حتى تصيب القبيلة

من دم قاتليه ، وكانوا يحرمون على أنفسهم الخمر وكل الملذات إلى أن يدركوا وِتْرهم ، ودفعهم ذلك إلى أن يكبروا مصيبتهم فى القتيل وأن يسبغوا عليه من الخلال والمحامد ما يشعل الحرب ويؤجج نيرانها فلا تنطفىء أبداً .

وما حياتهم فى الجاهلية إلا سلسلة حروب ومعارك طاحنة ، فكانوا لا يدفنون قتيلا إلا ليستعدوا لدفن أخيه وبكائه وتأبينه والإشادة ببطولته وكرمه ، وما أعْطَى لقبيلته من ماله وروحه . ولم يؤبنوا أبطالهم وقتلاهم فحسب ، بل أبّنوا أيضاً أشرافهم وسادتهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخرا بهم واعتزازا . وكانوا يجيرون على القبور ، فمن استعاذ بقبر سيد أو شريف حمل أهلُه مَغْرَمَه ، وكثيراً ما ذبحوا على أجداثهم إبلهم وخيلهم ، كأنما يريدون أن يرضوا عظامهم ، وأن يعترفوا لهم بوفرة ما ذبحوا للناس من إبل وأنعام . ودائماً نجدهم يستسقون لهم السحاب ، ويستنزلون لهم الغيث حتى تُمْرِع قبورهم وتصبح رياضاً عاطرة .

وكل ذلك احتفال بالميت وتمجيد ، وبُقْيَا عليه وعلى ذكراه ، وكان أهم ما يخلده فى رأيهم هذه الأبيات من الشعر التى يصوغ فيها الشاعر محاسنه ومناقبه ، وكأنه يريد أن يحفرها فى الأذهان حفرا ، حتى لا تمحى على مر الزمان ، وحتى لا يصيبها شىء من زوال أو نسيان . إنها كل ما يملك ليُبْقِى على الميت بينهم وليجعله دائما ماثلا أمامهم .

٢

تأبين الخلفاء والوزراء

هذه الصورة التى ذكرناها للتأبين فى الجاهلية ، والتى كانت تعتمد على الخلال والمناقب التى يحترمها العربى القديم ويجلها فى الرجل ، والتى تجمعها كلمة المروءة ، لم تلبث أن دخلت عليها تعديلات مع ظهور الإسلام ورسالته السَّمْحة فإنه عَدَّل فى المثل الأعلى عند العرب ، ورفع كثيراً من الخلال ووضع مكانها

خلالا جديدة .

لقد كان العربي فى الجاهلية يعد سفك الدماء حسنة كبرى من الحسنات ، فجاء الإسلام محرّماً للدماء رافعاً لما كان منها فى القديم ، كما رفع كثيراً من المآثر الجاهلية ، وأقام مكانها مآثر جديدة من العدل والتقوى والزهد فى الحياة ، وإخلاص الوجوه لله . وهذه المثالية الجديدة كان لها شأنها فى الرثاء ، فقد أخذت تحلّ فيه صفات لم يكن العربى الجاهلى يعنى بها ولا كان يفكر فيها.

ويتضح ذلك فى تأبين الخلفاء ، إذ كانوا أصحاب الدولة الإسلامية والقائمين على نشر تعاليمها ، واحترام سُنَنها فى الجزيرة العربية وخارج الجزيرة . فطبيعى أن يفكر الشاعر أول ما يفكر حين يلم برثائهم فى الدولة من بعدهم وما سلكوه فى حكمهم من عَدْل ، وما أخذوا به أنفسهم من طاعة الله ورسوله والعمل بدعوته فهم خلفاؤه ، وهم أمناؤه على المسلمين من حولهم وعلى رسالته وما تضىء به النفوس من مُثُلٍ وصفات نبوية .

وأول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق الذى حمل لواء الدعوة الإسلامية من بعده وتناول مصابيحها ، فأضاء بها شرقىّ الجزيرة وغربيّها : بلاد فارس والشام بعد أن لمّ شتات العرب المبعثر فى الجزيرة ، ودفعه دفعا إلى الخارج ، فتراموا كالموج ، لا يحول بينهم وبين ما يريدون حائل ، وكأنما ناولهم بيده الكريمة الكرة الأرضية ليزرعوا فى أى مكان شاءوا الدعوةَ الإسلامية ، ويَجْنوا لله ولأنفسهم ثمارها ، وفيه يقول حسان مؤبّنا :

إذا تذكّرتَ شَجْواً من أخى ثقةٍ فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا

خيرَ البريّةِ أتقاها وأعدَلها بعد النبيّ وأوفاها بما فعَـلا

الثانيَ اثنين والمحمودَ مشهدُه وأوّلَ الناسِ طرًّا صدّق الرُّسُلا

وكان حِبَّ رسولِ الله قد علموا من البريّة لم يَعْـدل به رجلا

وحسان يتحدث فى تأبينه لأبى بكر عن فضائله المعروفة عند المسلمين ، إذ يعرض لمنزلته من الرسول ، وكيف كان صاحبه فى الغار وفى الهجرة من مكة

إلى المدينة ، ويذكر أنه كان أول المصدقين به وبرسالته ، ولذلك دعى الصِّدّيق. وكل ذلك ذائع مستفيض عن أبى بكر ، أما تقواه وزهده وصالح سعيه فى الدين وإذلاله للدنيا وإعزازه للآخرة ، فكل ذلك مشهور بالوجه الصحيح والشهادة الثابتة ، وأما رفقه بالمسلمين وعدله بينهم وما شئت من سيرة ذكية نقية طاهرة ، فالأمة الإسلامية مجمعة عليه والدلالة اليقينية قاطعة به . نَضَّر الله وجهه .

وليس هناك ريب فى أن تأبين حسان جديد فى اللغة العربية ، فهو لم يتحدث حديث الجاهليين عن موتاهم ، وإنما تحدث حديث المسلمين ، تحدّث بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية ، فيها البر والعدل والتقوى والإسلام ، وفيها الخير ومحبة الرسول وإيثاره على كل الأصحاب والأنصار . وبهذه الخلال والمناقب الجديدة كانت فاجعة الإسلام والمسلمين فيه .

وخلفه عمر ، فسار فى الناس بسيرته وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبله واقتعد من العدل والزهد فى الدنيا مكانا تنقطع الرقاب دونه . وما زال يحفظ الدولة بل ما زال يمد فى أطنابها شرقاً وغرباً ، والدنيا تزحف إلى العرب من تحت أقدامه وهم يجوبونها فاتحين مجاهدين فى الله ورسوله حق الجهاد ، قد استحبوا الآخرة الباقية وآثروها على الدنيا الفانية ، والعالم القديم يلهج باسمه ، وجنوده منصورة فى كل مكان يسبّحون بآلاء ربهم وما أفاءه على الإسلام . ولم تلبث أن امتدت إليه يد آثمة فى الظلام ، فطعنه أبو لؤلؤة المجوسى طعنة مسمومة ، وهو قائم يصلى فى المحراب . فبكاه المسلمون وأبنوه تأبينا رائعا ، فمن ذلك قول الشماخ :

جَزَى اللهُ خَيْرًا من إمامٍ وباركتْ ... يَدُ اللهِ فى ذاكَ الأديمِ الممزَّقِ

فمن يَجْرِ أو يركبْ جناحَىْ نعامةٍ ... ليُدْرِكَ ما قدَّمتَ بالأمسِ يُسْبَقِ

قضيتَ أموراً ثم غادرْتَ بعدها ... بَوَائِجَ[1] فى أكمامها لم تفتَّقِ

أبعد قتيلٍ بالمدينةِ أظلمتْ ... له الأرضُ تهتزُّ العِضَاهُ[2] بأَسْوُقِ

---

(١) بوائج : جمع بائجة وهى الداهية .

(٢) العضاه : شجر ، وأسوق : جمع ساق .

تظل الحصانُ البِكْرُ يُلقِى جَنِينَها   نَثَا[1] خَبَرٍ فوق المطىِّ معلَّق

وهو يستهل كلمته بالدعاء لعمر أن يجزيه الله عن الرعية خيرا وأن يبارك أديمه الممزق بسكين أبى لؤلؤة . ثم انتقل يتحدث عن إمارته على المسلمين واستصلاحهم وتفقد مصالحهم ، فقال إن من أراد إن يبلغ ذلك أو يرتقى إلى غايته حتى لو ركب جناحَىْ نعامة فإنه سيظل حَسيرا مسبوقا. وتوجه إليه بالخطاب يقول له إنك قضيت أمورا وأحكمتها بجميل رأيك وتركت وراءها دواهى لا تزال فى أكمامها وأغطيتها لم تُفْتَق ولم تُكْشَف. ثم أخذ يتحدث عن فظاعة الحادثة متعجباً أن يورق ويهتز شجرُ العضاه بعد أن نزلت بالمسلمين هذه الفاجعة التى لم تسمعها النساء حتى سقط حَمْلُهن استشعاراً لما تطوى من شر مستطير .

وهذه الصورة من الرثاء جديدة جدة واضحة ، فإن الشماخ لم يدع لعمر بأن تنزل السحب بقبره كما كانوا يدعون فى الجاهلية ، بل دعا الله له ، واستمطر رحمته عليه ، ثم تحدث عن سياسته للمسلمين وأمورهم مستعظما للكارثة التى سقطت عليهم كأنها الصاعقة .

وخلف عمرَ عثمانُ ، وكانت فى عهده أول فتنة فى الإسلام ، إذ ثارت به طائفة من شذاذ العرب ، وما زالوا به حتى قتلوه وهو يتلو القرآن الكريم ، فقال حسان :

ضَحَّوْا بأشْمَطَ[2] عُنْوَانُ السجود بهِ   يقطِّع الليل تسبيحاً وقرآنا

وخلفه علىٌّ فلم يستطع أن يلم ما تشعث إذ طعنته يد طائشة حالت بينه وبين ما يريد من جمع المسلمين على كلمة سواء ، فذهب إلى ربه راضيا مرضيا ، وفيه يقول أبو الأسود الدُّؤَلىّ :

أفى شهر الصيام فجعتمونا   بخير الناس طُرًّا أجمعينا

قتلتم خيرَ من ركب المطايا   وخيَّسَها[3] ومن ركب السفينا

---

(١) نثا : شائع ، وتعليق الخبر فوق المطى : كناية عن أنه سارت به الركبان وتقاذفته البلدان .

(٢) أشمط : شائب .

(٣) خيسها : ذللها .

ومن لبس النعالَ ومن حَذَاها   ومن قرأ المثـانىَ والمثينا[1]

يُقيم الدينَ لا يرتاب فيه   ويقضى بالفرائض مستبينا

و واضح أنه يؤبنه بمحامد ومناقب إسلامية خالصة ، فهو خير الناس دينا وهب نفسه لربه يتلو قرآنه مثانيه ومثينه ، و يقيم شريعته على الحدود والفرائض التى شرعها الإسلام ، فهو الخليفة التقى الصالح العدل الذى سار على الطريق النير لا يحيد ولا يميل ، كأنه قسطاس الدين المستقيم ومعياره السليم .

ونمضى فى الدولة الأموية فنجد مع وفاة كل خليفة مراثى مختلفة ، ولعل أهم خليفة رثاه الشعراء عمر بن عبد العزيز ، إذ سار فى الناس سيرة عادلة زاهدة ، كلها تقوى وخشية من الله ، وإيثار للدار الباقية ، وفيه يقول جرير :

يَنْعَى النُّعاةُ أميرَ المؤمنين لنا   يا خير مَنْ حَجَّ بيتَ الله واعتمرا

حُمِّلْتَ أمرا عظيما فاصطبرْتَ له   وقمتَ فيه بأمر الله يا عُمَرَا

فالشمس طالعةٌ ليست بكاسفةٍ   تُبكى عليك نجومَ الليل والقمرا

وجرير يذكر له تقواه وعبادته وحجه بيت الله ، ويفضله على كل المسلمين فى صلاحه وزهده ، ويثنى على اضطلاعه بأمور رعيته ، وإقامته لشريعة ربه ، ثم يصور عظم المصيبة فيه ، فيقول إن الشمس طالعة غير كاسفة تُبكى عليه نجومَ الليل والقمر .

ويدور الزمن ، ويذهب الأمويون ويأتى العباسيون ، ويكثر الشعراء ، ويكثر الرثاء ، وخاصة إذا كان الخليفة عادلا ، لا يريد غير ربه بعمله ، ولسَلْم الخاسر فى ثالث خلفائهم المهدى يرثيه ويؤبنه :

وباكيةٍ على المهدىِّ عَبْرَى   كأنَّ بها وما جُنَّتْ جُنونا

وقد خمشتْ محاسنها وأبدتْ   غدائرها وأظهرتِ القرونا[2]

---

(١) حذا النعل : قدرها وقطعها ، والمثانى والمثين : آيات القرآن الكريم .

(٢) الغدائر والقرون : خصل الشعر .

لئن بَلِىَ الخليفة بعدعَشْرٍ [1] لقد أبقى مساعىَ ما بَلينا
سلامُ الله غُدْوَةَ كل يومٍ على المهدىِّ حين ثوَى رَهينَا
تركنا الدين والدنيا جميعاً بحيث ثوى أميرُ المؤمنينا

وإذا كان الخلفاء العباسيون قد سالت على قبورهم دموع الشعراء فإن الخلفاء الفاطميين فى مصر قد أهاجوهم أيضا حين وفاتهم ، فنثروا الدموع الغزار على أجداثهم ، فمن ذلك قول حَظِىِّ الدولة أبى المناقب عبد الباقى فى رثاء المستنصر :

وليس ردَى المستنصر اليومَ كالرَّدى [2] ولا أمرُه أمرٌ يُقاس به أمْرُ
لقد هاب مَلْكُ الموت إتيانَه ضُحًى ففاجأه ليلاً ولم يطلع الفجر
فأجْرَى عليه حين مات دموعَنا سماءً ، فقال الناس لا بل هو القَطْرُ
وقد بكت الخنساء صَخْراً وإنه ليبكيه من فَرْط المصاب به الصَّخْرُ

وهذا ندب وبكاء ، وكان يشيع عند الشيعة كما قدمنا فى غير هذا الموضع بكاء آل البيت ، فتناول الشعراء قبساً من هذا البكاء ، وكتبوا عليه مراثيهم فى الفاطميين .

وكلما وُجِدَتْ خلافة وجد معها هذا البكاء وما يَنْطوِى فيه من تأبين ، نجد ذلك عند خلفاء بنى أمية فى الأندلس منذ عبد الرحمن الناصر ، كما نجده عند خلفاء المغرب فى دوله المختلفة من مُوَحِّدين وغيرهم ، إذ كان ذلك سُنَّةً فى العالم الإسلامى ، لا حين يموت الخلفاء فحسب ، بل حين يموت الأعيان والأشراف .

وكان للوزراء نصيبهم وحظهم من الرثاء ، وخاصة حين ينكبهم الخلفاء ، وممن بكاهم الشعراء كثيراً من وزراء الدولة العباسية ابن الزيات وزير المتوكل ،

---

(١) يشير إلى أنه ولى الخلافة مدة عشر سنوات .

(٢) الردى : الموت .

وفيه يقول الحسن بن وَهْب :

يكاد القلبُ من جَزَعٍ يطيرُ ... إذا ما قيل قد هلك الوزيرُ
أميرَ المؤمنين ! هدمتَ رُكناً ... عليه رحاكُمُ كانت تدورُ
سيبكى المُلْكُ من جزعٍ عليه ... وتبكى حين تضطرب الأمور

ومن الوزراء الأندلسيين الذين بكاهم الشعراء المنصور بن أبى عامر وزير هشام الملقب بالمعتد، وهو شخصية فذة، وكان له مجلس معروف كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم والأدب ، وهو الذى بنى مدينة الزاهرة بالقرب من قرطبة ، وله حروب وغزوات كثيرة فى الأسبان الشماليين ، ومما قيل فيه وكتب على قبره :

آثارُهُ تُنْبِيك عن أوصافهِ ... حتى كأنك بالعِيان تراهُ
تالله لا يأتى الزمانُ بمثلِه ... أبداً ولا يحمى الثغورَ سواهُ

ومن الوزراء المشهورين لآخر عهد بنى أمية هناك حسان بن مالك بن أبى عَبْدة ، وفيه يقول صديقه أبو عامر بن شُهَيْد من مرثية طويلة :

أفى كل عامٍ مصرعٌ لعظيمٍ ؟ ... أصاب المنايا حادثى وقديمى
وكيف اهتدائى فى الخطوب إذا دَجَتْ ... وقد فقدت عيناىَ ضوء نجوم
مضى السَّلَفُ الوضَّاح إلا بقيةً ... كغُرَّة مسودٍّ القميص بَهيمِ (١)
أبا عبدةٍ إنا غَدَرْناك عند ما ... رجعنا وغادرناك غيرَ ذميم
أنخذل من كنا نَرودُ بأرضه ... وَنكْرَعُ منه فى إناء علومِ (٢)
ويجلو العَمَى عنا بأنوار رأيهِ ... إذا أظلمتْ ظلماء ذات غموم

---

(١) يقول إنه لم تبق إلا بقية قليلة من السلف الأغر ، وهى تشبه فى قلتها الغرة فى الفرس الأسود ، والبهيم : الخالص السواد .

(٢) نرود : من راد العشب أى طلبه ، ونكرع : نشرب .

وعلى نحو ما أكثر شعراء الأندلس من رثاء وزرائهم أكثر المصريون من رثاء من استوزره الفاطميون وغيرهم، ومما قيل فى طلائع بن رزيك :

أفى أهل ذا النادى عليمٌ أسائلُهْ … فإنى لما بى ذاهبُ اللبِّ ذاهلُهْ
سمعتُ حديثاً أحسد الصُّمَّ عنده … ويذهل واعيه ويخرس قائله
وإنى أرى فوق الوجوه كآبةً … تدلّ على أن الوجوه ثواكله

ورثاء وزرائنا فى العصر الحديث يحتل مكاناً بارزاً فى شعر حافظ وشوقى ، وللأخير فى رثاء مصطفى فهمى أحد رؤساء الوزارة المصرية فى خاتمة القرن الماضى وفاتحة هذا القرن :

يا أيها الناعى أبا الوزراءِ … هذا أوانُ جلائل الأنباءِ
حُثَّ البَرِيد مشارقاً ومغاربا … واركب جناحَ البَرْقِ فى الأرجاءِ
واسْتَبْكِ هذا الناسَ دمعاً أو دماً … فاليومُ يومُ مدامعٍ ودماءِ
لم تَنْعَ للأحياء غير ذخيرةٍ … ولَّتْ وغير بقية الكُبَراءِ

ووراء شوقى كثير من الشعراء الذين رثوا وأبّنوا من توفوا من الوزراء ، تسعفهم فى ذلك الصحف اليومية التى تخرج مع كل صباح ومساء .

٣

تأبين الأشراف والأجواد والقواد

لم يترك شعراؤنا شريفا على مر العصور دون أن يقفوا بقبره وينثروا مدامعهم عليه . وكان مقياس الشرف فى الجاهلية التميز فى القبيلة بالكرم والشجاعة والسيادة ، ومن أقدم المراثى التى نذكرها فى هذا الجانب مرثية أوس بن حَجَر فى

فضالة بن كَلَدة الأسدى ، وفيها يقول :

أيتها النفسُ أجملى جَزَعا إن الذى تحذَرين قد وقعا
إن الذى جَمَّعَ السماحة والنجْ ـدة والحزم والقُوَى جُمَعَا
أوْدَى[1] وهل تنفع الإشاحةُ من أمرٍ لمن قد يحاول البِدَعا
الألمعىُّ الذى يظن لك الـ ـظَّنَّ كأنْ قد رأى وقد سمعا[2]
المُخلفُ المتلفُ المرزَّأُ لم يُمتَعْ بضعفٍ ولم يَمُتْ طَبِعاً[3]

وهو يدور فى تأبينه حول المعانى والصفات التى كان يقدرها العرب فى الجاهلية ، والتى كانوا يطلبونها فى أشرافهم وأصحاب النباهة والسيادة . وما تزال هذه الخلال وما يماثلها دائرة على ألسنة الشعراء فى مراثيهم حتى عصرنا الحاضر .

ونمضى بعد العصر الجاهلى إلى العصر الإسلامى، فتُلْقى الأرض بكنوزها إلى حجور العرب ، وتتكون طبقة كبيرة من الأشراف ، يكون من بينها الولاة وكبار القواد والأجواد ، وهى لا تقف عند حد ، فقد بالغ العرب فى طلب المديح وأن تجرى ألسنة الشعراء فيهم بالثناء العطر ، فكانوا إذا رحلوا عن دنياهم شيعوهم بالعبرات . ومن طريف ما شاع على الألسنة فى العصر الإسلامى مطلع قصيدة لابن قيس الرُّقَيَّات فى شريف وقائد من قواد العراق هو طَلْحَة الطلحات، إذ يقول :

نَضَّر اللهُ أَعْظُماً دفنوها بسجستانَ طلحةَ الطلحات

ولعل الشعراء لم يرحلوا إلى وال فى هذا العصر كما رحلوا إلى عبد العزيز بن مروان والى أخيه عبد الملك على مصر ، فقد كان كعبة القاصدين ، وملجأ المعوزين والمحتاجين ، وللفرزدق يرثيه :

ظلوا على قبرهِ يستغفرون له وقد يقولون تاراتٍ لنا العَبَرُ[4]

---

(١) أودى : هلك ، الإشاحة : الجد فى طلب الحاجة ، البدع : الأمور الجديدة الغريبة .
(٢) الألمعى : الذكى الحديد القلب واللسان ، وقد وصفه بأنه يتظنن الأمور فلا يخطىء .
(٣) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لكرمه ، والطبع : اللئيم الدنىء .
(٤) العبر : الاعتبار .

يُقَبِّلون تراباً فوق أعظمهِ | كما يُقَبَّل فى المحجوجة الحجَر[١]
لله أرضٌ أجنَّتْه ضَريحتُها | وكيف يُدْفَنُ فى الملحودة القمرُ[٢]
إن المنابر لا تعتاض عن ملكٍ | إليه يشخص فوق المِنْبَرِ البَصَرُ

ولما تحولت الخلافة إلى بنى العباس كان من بين من قضوا عليهم يزيد ابن عمر بن هبيرة والى العراق لمروان بن محمد وقائد جيوشه هناك ، وكان من الشجعان الأجواد ، وفيه يقول أبو عطاء السندى نادبا متفجعا :

ألا إنَّ عَيْناً لم تَجُدْ يوم واسِطٍ | عليك بجارى دمعها لجَمُودُ[٣]
عَشِيَّةَ قام النائحاتُ وشُقِّقَتْ | جيوبٌ بأيدى مأتمٍ وخدودُ[٤]
فإن تُمْسِ مهجورَ الفِناء فربما | أقام به بعد الوفود وفودُ[٥]

وكان للعصر العباسى أجواده وأشرافه وقواده الذين أجزلوا العطاء للشعراء ، وأجزل الشعراء لهم فى المدائح والمراثى . ومن أهم من رثوه وبكوه مَعْنُ بن زائدة الشيبانى والى المنصور على اليمن وله سير وأقاصيص فى المديح تشبه سير حاتم كريم الجاهلية . ولعل أحداً لم يبلغ فى رثائه ما بلغه الحسين بن مطير الأسدى ، فله فيه مرثية رائعة يقول فى تضاعيفها هذه الأبيات البديعة :

أَلِمَّا على مَعْنٍ وقولا لقبرهِ | سَقَتْكَ الغوادى مَرْبَعاً ثم مَرْبَعا[٦]
فيا قَبْرَ مَعْنٍ أنت أولُ حُفْرَةٍ | من الأرض خُطَّتْ للسماحة مَضْجَعا[٧]

---

(١) المحجوجة : الكعبة .
(٢) الضريحة : اللحد أو وسطه .
(٣) واسط : البلدة التى قضى فيها على ابن هبيرة ، وهى بين البصرة والكوفة ، والعين الجمود : البخيلة بالدمع .
(٤) الجيوب : أعلى الثياب مما يلى الصدور .
(٥) الفناء : ردهة الدار ، والوفود : الجماعات ، والبيت كناية عن رياسته السابقة وكرمه .
(٦) الغوادى : السحاب : والمربع : مطر الربيع .
(٧) خطت : حفرت ، والمضجع : موضع الاضطجاع .

ويا قبر مَعْنٍ كيف واريتَ جوده   وقد كان منه البرُّ والبحر مُتْرَعا[1]
بلى قد وَسِعْتَ الجودَ والجودُ مَيِّتٌ   ولو كان حَيًّا ضِقْتَ حتى تصدَّعا[2]
فتًى عِيشَ في معروفه بعد موتهِ   كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَعَا[3]

ومن وجوه العصر العباسى الذين أحدث موتهم جروحا لا ترقأ فى قلوب الشعراء منصور بن زياد، وفيه يقول التَّيْمىّ من مرثية طويلة :

عَمَّت فَواضلهُ فعمَّ هلاكهُ   فالناس فيهِ كلهم مأجورُ
والناس مأتمهم عليهِ واحدٌ   فى كل دارٍ رنَّةٌ وزفيرُ

وكان ابنه محمد على مثاله فى الجود والكرم ، وكان يلقب بفتى العسكر ، وللشعراء فيه مراث بديعة ، ومن قول أشْجع السلمى يرثيه :

أنْعَى فتى الجُودِ إلى الجود   ما مثلُ من أنْعَى بموجود[4]
أنْعَى فتى مَصَّ الثرَى بعده   بقيَّةَ الماء من العود[5]
وانثلم المجدُ به ثَلْمَةً   جانبُها ليس بمسدودِ[6]
اليوم تُخْشَى عَثرات النّدَى   وصولةُ البخل على الجودِ[7]

وممن شغلوا الشعراء أحياء وأمواتا يزيد بن مَزْيد، سيفُ الرشيد المسلول على أعدائه ، وقد تغنى الشعراء بمديحه طويلا ، فلما نزل به القدر هبّوا ناعين باكين

---

(١) المترع : المملوء .
(٢) تصدع : تتصدع أى تتشقق .
(٣) المرتع : المكان المعشب الذى ترعى فيه الماشية .
(٤) النعى : الإخبار بالموت .
(٥) يقول إن الأرض يبست و جفت بعد موته فامتصت ما فى العود من بقية الماء . وهو كناية عن إجداب الأرض بعد موته .
(٦) انثلم : انصدع .
(٧) العثرات : الزلات ، والصولة : الغلبة .

وفيه يقول التيمى :

أحقًّا أنه أَوْدَى يزيدُ ... تَبَيَّنْ أيها الناعى المُشِيدُ[١]

أتدرى من نَعَيْتَ وكيف فاهتْ ... به شفتاك واراك الصعيدُ[٢]

أحامى المُلكِ والإسلام أَوْدَى ... فما للأرض ويحكَ لا تَمِيدُ[٣]

تأمَّلْ هل ترى الإسلام مالتْ ... دعائمهُ وهل شاب الوليدُ

أما والله لا تنفكُّ عينى ... عليه بدمعها أبدا تجودُ

وكل بيت من المرثية يفيض بالدمع والأسى ، وهى من أجود المراثى فى الشعر العربى قديماً وحديثاً . ومن الشعراء الذين برزوا فى مراثى الولاة والقواد ممن فاضوا على الناس ببحور نوالهم وغمروا بها الأرامل واليتامى شاعر مشهور يدور اسمه على كل لسان ، وهو أبو تمام ، ومن قوله فى إحدى مراثيه وهى فى خالد بن يزيد بن مزيد :

أشيبانُ لا ذاك الهلال بطالعٍ ... علينا ولا ذاك الغمام بعائدِ[٤]

ولا جانبُ الدنيا بسَهْلٍ ولا الضُّحَى ... بطَلْقٍ ولا ماء الحياة ببارِدِ[٥]

فيا وحْشَةَ الدنيا وكانت أنيسةً ... ووُحْدَةَ مَنْ فيها بمَصْرعِ واحدِ

وكان من الحوادث الدامية فى عصره أن قتل فى بعض حروب العباسيين بطل من أشهر أبطالهم ، وهو محمد بن حُمَيْد الطوسى الذى طالما دوخ الجيوش ، وكان آية فى الجود والكرم ، فنوه به الشعراء وأطنبوا فى الثناء ، فلما قتل فى ساحة الحرب أقاموا له المآتم ، ومن أروع ما قيل فيه مرثية لأبى تمام ، نقرأ

---

(١) المشيد : الرافع لصوته .

(٢) الصعيد : الثرى .

(٣) تميد : تتحرك وتهتز .

(٤) شيبان : قبيلة الميت .

(٥) طلق : مشرق .

فيها هذه الأبيات :

تُوُفِّيت الآمالُ بعد محمَّدٍ وأصبح فى شُغُلٍ عن السَّفَر السَّفْرُ (١)
فَتًى كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ دَمًا ضحكتْ عنه الأحاديث والذِّكْرُ (٢)
فتى دَهْرُهُ شطران فيما ينوبُه ففى بأسه شَطْرٌ وفى جوده شَطْرُ (٣)
فتًى مات بين الطَّعْن والضرب ميتةً تقوم مقام النصر إذ فاته النَّصْرُ
وما مات حتى مات مضربُ سيفه من الضَّرْب واعتلّت عليه القَنا السُّمْرُ (٤)
تَرَدَّى ثياب الموت حُمْراً فما دَجَى لها الليلُ إلا وهْىَ من سُنْدُسٍ خُضْرُ (٥)

ويكاد الإنسان يظن أنه لم يمت شريف ولا صاحب مأثرة إلا نعاه الشعراء وخلدوا ذكراه، ودواوينهم تزخر بمراثيهم لا فى الشرق وبغداد فحسب ، بل فى كل مكان حتى أقصى العالم الإسلامى فى الغرب ، ونقصد الأندلس ، فإن شعراءها جَلَّلُوا دواوينهم وأشعارهم بسواد الحزن على من سبقوهم إلى دار الخلود .

ونستطيع أن ندخل فى هذا الباب عندهم مراثيهم فى ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكاً حقيقيين ، إنما كانوا أمراء وأعياناً فى بلدانهم ، واختارتهم هذه البلدان ليدبروا أمرهاوقد اشتهر ابن باجة فيلسوف الأندلس وإمامها فى الألحان بمراث بكى بها أبا بكر بن تيفَلْوِيت صاحب سَرَقُسْطَة ، وقد غنى بها فى ألحان مبكية ، من ذلك قوله :

سلامٌ وإلمامٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ على الجسَد النائى الذى لا أزورهُ
أحقًّا أبا بكرٍ تقضَّى فما يُرَى تردُّ جماهيرَ الوفود سُتُورُهُ

---

(١) السفر : المسافرون .

(٢) يريد الشاعر بالقبائل التى تفيض عيونها دما القبائل التى هزمها فى الحرب .

(٣) البأس : الشجاعة .

(٤) مضرب السيف : حده ، واعتلت : اعتذرت وتثاقلت ، والقنا : الرماح وتنعت بالسمرة كما تنعت السيوف بالبياض .

(٥) تردى : لبس ، ودجى الليل : أظلم ، والسندس : الحرير .

لئن أنِسَتْ تلك القبورُ بقبرِهِ لقد أوحشتْ أمصارُه وقصوره

وقوله :

يا صَدًى بالثغر جاوره رِمَمٌ بُورِ كُنَّ من رِمَمِ (١)
صَبَّحتْك الخيلُ غازيةً فأثارتْك فلم تَرِمِ (٢)
قد طوى ذا الدهرُ بزّتَهُ عنك فالبَسْ بِزّةَ الكرمِ (٣)

وإذا كان أبو تمام وغيره من الشعراء بكوا قواد العباسيين الذين استشهدوا فى الحروب فإن الأندلسيين كانوا فى حرب مستمرة مع الأسبان الشماليين ، وكم من سيد شريف وجواد كريم ضَحّى بنفسه فى هذه الحرب وجاد بها راضيا يطلب ما عند الله من الثواب والأجر . وتغنى الأندلسيون بأبطالهم كما تغنى العباسيون بشجعانهم ، وتمثُل فى أذهاننا توا حروب الصليبيين فى الشرق ، ومن ماتوا فى تلك الحروب فداء أوطانهم ، ومن دوّخوهم مدافعين عن حوزة الإسلام . ولعل الشرق لم يعرف أميرين عظيمين فى هذه المعارك كما عرف نور الدين فى الشام وصلاح الدين فى مصر ولما توفى أولهما نعاه الشعراء لحسن سيرته ولما قدم من بطولة سارت بها الركبان ، وفيه يقول العماد الأصفهانى :

يا ملكا أيامُه لم تَزَلْ لفضله فاضلةً فاخره
غاضتْ بحار الجود مذ غُيِّبتْ أنملُك الفائضةُ الزاخره
ملكتَ دنياك وخلَّفتها وسرتَ حتى تملك الآخره

وحَمل العبءَ من بعده صلاح الدين الأيوبى صاحب مصر ومؤسس الدولة الأيوبية بها ، وأكبر من خَضَدَ شوكة الصليبيين ، بل لقد رمى بأمواجهم إلى

---

(١) الصدى : جسد الشخص بعد موته .
(٢) لم ترم : لم تبرح مكانك من رمت المكان أى أقمت به .
(٣) البزة : الثوب

البحر مستخلصا منهم بيت المقدس وغيره من بلدان الشام ، ولما نزل به قضاءُ ربه رثاه العماد بقصيدة طويلة بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتا وفيها يقول :

ملكٌ عن الإسلام كان محامياً ... أبداً إذا ما أسلمته حُماتُهُ

قد أظلمتْ مذ غاب عنها دُورهُ ... لما خلتْ من بدرهِ داراتُه(١)

لو كان فى عصر النبىّ لأُنزلَتْ ... فى ذكره من ذكره آياته

فعلى صلاح الدين يوسف دائما ... رضوانُ ربِّ العرش بل صلواته

وعلى هذه الشاكلة كان شعراؤنا لا يتركون شريفا ولا عظيما يموت وتذهب ذكراه ، بل سجلوا دائما مناقب كل سيد نبيل ، وكل بطل جرىء . وما دواوين شعرائنا إلا سجلات حافلة بمن لمعوا فى عصورهم ، ثم اختفوا وراء ظلمات الموت .

ونمضى بعد صلاح الدين فى ديارنا المصرية ، ويدور بنا الزمن دورات ، حتى نصل إلى العصر الحديث بين أنات الشعراء وصياحهم على من يتوفون من سلاطين المماليك وعلية القوم ورؤسائهم وأجوادهم . وما نزال حتى نلتقى بحافظ وشوقى فنجد لمراثى السراة والأعيان مكانا بارزا فى ديوانيهما ، ولعل حافظاً يتقدم شوقى فى هذا الجانب، إذ دفعته رقة حاله للاتصال بطائفة من العِليَّة الممتازين فى عصره، وأغدقوا عليه من بِرّهم وفضلهم فكان إذا نزل الموت بساحة واحد منهم ذهب ينشج عليه وينوح بعاطفة حزينة صادقة ، من ذلك قوله فى سليمان أباظة :

أَوْدَى سليمانٌ فأودى بعده ... حُسْنُ الوفاء وبهجةُ العَلْياء

لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ... ما حُمِّلتْ من منَّةٍ وعطاء

وذروا على نهر المدامع نعشَهُ ... يَسْرِى به للرَّوْضةِ الفَيْحَاء

تالله لو علمتْ به أعوادهُ ... مذ لامسته لأَوْرَقتْ للرائى

خلقٌ كضوء البدر أو كالروض أو ... كالزهر أو كالخمر أو كالماء

ولشوقى هو الآخر مراث فى سراة عصره ، وكانت له مقدرة بديعة فى تلوين الرثاء بالحكم وسنعرض لذلك فى حديثنا عن العزاء .

(١) الدارات : جمع دارة وهى الهالة الدائرة حول القمر .

٤

تأبين العلماء والأدباء

طبيعى أن يكون للعلماء مكانهم فى التأبين والرثاء ، إذ كانوا يتصلون بحياة الشعراء اتصالا مباشراً إما من الوجهة الثقافية العامة ، وإما من الوجهة الدينية ، وقلما مات صاحب مذهب فى الدين أو صاحب أثر بارز فى تآليف الشريعة إلا نعاه الشعراء وتحدثوا عن فضله وواسع علمه وقيمة ما ترك من ورائه . وممن بكاه الشعراء الأوزاعىّ فقيه الشام ، وإمام أهله لعصر بنى أمية ، وفيه يقول بعض الشاميين :

جاد الحَيَا[1] بالشام كلَّ عَشِيَّةٍ　　قبرا تضمَّن لَحْدُه الأوزاعى
قَبْرٌ تضمَّن فيه طود شريعةٍ　　سقيا له من عالم نفَّاعِ
عرضتْ له الدنيا فأعرض مقلعاً　　عنها بزهدٍ أيما إقلاعِ

وغير الأوزاعى من الفقهاء الأول كان يبكيه الشعراء ، ويؤبنونه معبرين عن إعجابهم به وبسلوكه العلمى والخلقى ، ولبعضهم فى الإمام مالك وكتابه« الموطأ » :

إمامٌ مُوَطَّاه الذى طُبِّقَتْ به　　أقاليم فى الدنيا فساحٌ وآفاقُ
له سَنَدٌ عالٍ صحيحٌ وهَيْبَةٌ　　فللكل منه حين يرويه إطراقُ

وهو يشير إلى ما فى كتاب الموطَّأ من أحاديث صحيحة عالية السَّنَد ، موثوق بها ، إذ كان مالك ديّنا ورعا ، متحرجا فيما يرويه من أحاديث ، فلم يَرْوِ إلا الصحيح . ويقول آخر فى الشافعى (وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس) :

---

(١) الحيا : الغيث .

ألم تر آثار ابنِ إدريسَ بعده   دلائلُها فى المشكلات لوامعُ
إذا المقْطِعات المشكلاتُ تشابهتْ   سما منه نورٌ فى دُجَاهن لامع
تَسَرْبَلَ بالتقوى وليدا وناشئا   وخُصَّ بلُبِّ الكَهْل مُذْ هو يافعُ

ويطول بنا القول لو ذهبنا نحصى ما قيل فى الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية على مر العصور ، فقد كانوا أساتذة المسلمين الروحيين ، وكانوا يتلقون عنهم من الهدى فى دينهم ما يضيء لهم جوانب حياتهم ، فلا غرو أن وقفوا عليهم كثيرا من مراثيهم .

ولعل علماء اللغة هم أكثر العلماء اتصالا بالشعر والشعراء ، فقد كانوا يؤدبونهم ، وعن طريقهم حذقوا فنهم وقد ذهبوا ينعونهم فى شعرهم ، ونجد هذا النعى فى كل مكان . وممن أكثر الشعراء نعيه منهم عبد الملك بن سراج مُحيي علم اللسان بجزيرة الأندلس ، فقدعقد ابن بسام فى كتابه الذخيرة فصلا طويلا لمراثيه ، ومما قيل فيه :

كم مُصعَبٍ فى النحو راضَ جِماحَهُ   حتى غَدَا والصعبُ منه ذَلولُ
أدْنَى إلى الأفهام نائىَ علْمِها   حتى تساوى عالمٌ وجهول
طَبٌّ بأدْواء الكلام ملقَّنٌ   سَهْمٌ على عَوْراته مدلولُ(١)

ومن مراثى اللغويين والنحويين البديعة مرثية الشرف الحصْنى لابن مالك صاحب « الألفية » المشهورة ، وفيها يقول :

يا شتاتَ الأسماء والأفعالِ   بعد موتِ ابن مالكِ المفْضالِ
وانحرافَ الحروف من بعد ضَبْطٍ   منه فى الانفصال والاتصالِ
مصدراً كان للعلوم بأذن الـ   ـله من غير شبهةٍ ومُحَالِ
عَدِمَ النحوُ والتعطُّفُ والتو   كيدُ مستبدلا من الأبدالِ

---

(١) طب : طبيب حاذق .

أدغموه فى التُّرْب من غير مثلٍ سالمًا من تغيُّر الإنتقال.

وواضح أن الحصنى تصنع لمصطلحات النحو ، فحشدها فى مرثيته ، حتى يلائم بين الشعر وصنعة ابن مالك وقد وفق فى هذا التصنع ، فلم تسقط الأبيات ولا الأفكار منه ، واستمر طويلا على هذا النحو الطريف .

ومن بين العلماء الذين أبنّهم الشعراء العلماء بالفلسفة ، وقد وجدوا فيهم مادة لا تنفد من أحوال الدنيا ، وخاصة أن أكثرهم كان يتعاطى الطب ، ويداوى الناس من الأمراض ، ولم يستطع أن يداوى نفسه ولا أن يمنع عنها نزول الموت ، فذكروا فضلهم وعلمهم ، ثم وقفوا عند صنعتهم وأنها لم تغنهم من أمرهم شيئا فمن ذلك قول يحيى المنجم فى رثاء ثابت بن قرّة :

نَعينا العلومَ الفَلْسَفِيّات كلّها خَبا نورُها إذ قيل قد مات ثابتُ
وأصبح أهلوها حيارَى لفقده وزال به رُكْنٌ من العلم ثابتُ
ولما أتاه الموتُ لم يُغْنِ طِبُّه ولا ناطقٌ مما حواه وصامتُ(١)

ويقول آخر فى ابن سينا :

رأيتُ ابن سينا يداوى الرجال وبالحَبْس مات أخَسَّ المماتْ
فلم يَشْفِ ما ناله بالشِّفا ولم يَنْجُ من موته بالنجاةْ

والشاعر يريد بالحبس انحباس بطنه من قرحة المعدة التى مات بها ، والشفاء والنجاة كتابان معروفان لابن سينا .

وإذا كان أسلافنا قدروا معاصريهم من العلماء فى مختلف الفروع والفنون فإن شعراءنا أيضا وفوا علماءنا حقهم من التكريم والتبجيل بعد وفاتهم ، فقلما توفى عالم نابه إلا أشادوا به ، وتحدثوا عن مناقبه ، وما أسدى لوطنه وأبنائه ، وما قدم لأمته من خدمات ، واستمع إلى شوقى يقول فى أبى هَيَّف أحد رجال القانون :

(١) المال الناطق : الدواب ، والصامت : العقار والضياع والذهب والفضة .

اجعلْ رثاءك للرجال جزاءً وابعثْه للوطن الحزين عزاء

إن الديار تريق ماءَ شُئونها كالأمهات وتندبُ الأبناء[1]

ثُكلُ الرجال من البنين وإنما ثُكلُ الممالك فقدُها العُلَماء

يجزَعنَ للعلَمِ الكبير إذا هَوَى جزَعَ الكتائب قد فقَدْنَ لواء[2]

عَلَمُ الشريعة أدركته شريعةٌ للموت ينظم حُكمُها الأحياء

عانى قضاء الأرضِ عِلْمَ محصّلٍ واليوم عالج للسماء قضاء

فهو يشيعه لا بحزنه وحده ، بل أيضاً بحزن وطنه عليه ، ومصيبته فيه ، وخسارة أصدقائه ومواطنيه . ومن بين من رثاهم عثمان غالب ، وكان عالما بالنبات وطبيبا ، فرثى العلمين فيه ، وهو يستهل مرثيته بقوله :

ضجّت لمصرعِ غالبٍ في الأرض مملكةُ النباتِ

في مأتمٍ تلقى الطبيـ ـعةُ فيه بين النائحاتِ

والزهرُ في أكمامه يبكى بدمع الغاديات[3]

أما مصاب الطبِّ فيـ ـهِ فسَلْ به مَلأَ الأساة[4]

وكان شوقى يعرف كيف يستخرج فى مراثيه المعانى من الموضوع الذى ينظم فيه ، وقد أطال فى بكاء الطبيعة وأزهارها على غالب ، ولا قطفنا هذه الأبيات الأربعة من أبيات كثيرة . وله فى رثاء طبيب :

جمَحَتْ جراحُ المُعوزين وأعضلَتْ أدواؤهم وتغيَّب الشافونا[5]

(١) ماء الشئون : الدموع .
(٢) العلم : المشهور ، وأصله الجبل .
(٣) الغاديات : السحب .
(٤) الملأ : شيوخ النادى ، والأساة : الأطباء .
(٥) أعضلت : استعصت .

مات الجواد بطبِّه وبأجره ... ولربما بذل الدواء مُعينا
وتَجُسُّ راحتُه العليلَ وتارةً ... تكسو الفقير وتطعم المسكينا

وللمعلمين حظهم فى مراثينا الحديثة ، وخاصة عند شعراء لبنان والمهجر ، ولنسيب عريضة مرثية بديعة يؤبّن فيها عبد الله البستانى مثنيا على أخلاقه وصفاته وكَدْحه فى سبيل رقىّ بلاده ونهضتها العلمية ، ومما جاء فيها :

إنه عالمٌ — تقول — قضى الأيْـ ... ـامَ ما بين طِرْسهِ ودواتهْ
كان يَقرِى الجياعَ عِلْماً وفَهْماً ... وسواه يَقْرِيهمُ من فُتاتِهْ
هَذَّب الناشئين فى أُمَّةٍ ما ... عرفتْ حقَّ قدرهِ فى حياتِهِ
فلتقدَّسْ ذكراه فى القلب فالذكْـ ... ـرَى بقلب الحزين من صلواتِهْ

ولعل مصر والبلاد العربية لم تبك عالما فى عصرنا كما بكت الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية إذ كان مصلحا كبيرا ، وكانت له معارك مع رجال الدين المتزمتين ، كما كانت له معارك وطنية وسياسية ، وكان فى كل ما يتجه إليه يفكر فى بلاده وفى دينه وفى الأزهر والنهوض به . وتصادف أن رعى حافظ إبراهيم وأن كان سببا فى جَذب الأنظار إليه ، فلما توفى ردّ إليه صنيعه مراثىَ ملتاعة ، وله فى إحدى مراثيه :

سلامٌ على الإسلام بعد محمَّدٍ ... سلامٌ على أيامه النَّضِراتِ
على الدين والدنيا ، على العلم والحِجَى ... على البِرِّ والتَّقْوَى ، على الحسَناتِ

واستمر يتحدث عن إصلاحاته ، وذبّه عن الإسلام ورده على مطاعن أعدائه ، وما سطر فى التفسير من آراء وأحكام ، حتى قال :

بكى الشرقُ فارتجَّت له الأرضُ رَجَّةً ... وضاقتْ عيون الكَوْن بالعبراتِ
ففى الهندِ محزونٌ وفى الصِّين جازعٌ ... وفى مِصْرَ باكٍ دائمُ الحسراتِ

وفى الشام مفجوعٌ وفى الفُرْس نادبٌ　　وفى تونُسٍ ما شئتَ من زَفَراتِ
بكى عالَمُ الإسلام عالِمَ عصرِهِ　　سِراجَ الدياجى هادمَ الشُّبُهاتِ

وهى مرثية مليئة باللوعة الشديدة ، إذ كان يبكى فيه ناصره، كما كان يبكى فيه أهدافه الإصلاحية الكثيرة للنهوض بوطنه .

وإذا كان العلماء قد استأثروا بكثير من مراثى شعرائنا فى القديم والحديث فإن الأدباء استأثروا من ذلك بالحظ الأوفر ، سواء أكانوا كتابا أم كانوا شعراء . وللشريف الرضى مرثيتان مشهورتان فى أكبر كاتبين فى عصره، وهما أبو إسحاق الصابى شيخ الكتاب فى بغداد والصاحب بن عباد وزير البُوَيْهِيِّين وخير كتابهم، ومن قول الشريف فى أولهما :

أعلمتَ مَن حملوا على الأعْوَادِ　　أرأيتَ كيف خبَا ضياء النادى ؟
جَبَلٌ هوى لو خَرَّ فى البحر اغتدى　　من وَقْعِهِ متتابعَ الإزبادِ
ما كنت أعلم قبل دفنك فى الثَّرَى　　أن الثرى يعلو على الأطوادِ

ويقول فى الصاحب من مرثية طويلة :

أكذا المَنون يقطِّر[1] الأبطالا　　أكذا الزمان يُضَعْضِع الأجْبالا
جَبَلٌ تَسَنَّمتِ البلادُ هضابَهُ　　حتى إذا ملأ الأقالِمَ زالا
يا طالبا من ذا الزمانِ شبيهَهُ　　هيهات كلَّفتَ الزمان محالا

وكثير هم الكتاب الذين دبج الشعراء فيهم مراثى بديعة ، فى الشرق والغرب وفى كل مكان نجد الشعراء يبكونهم . ومن طريف ما جاء عن الأندلسيين من ذلك رثاء ابن بُرْد الأصغر لأبى عامر بن شُهَيْد صاحب رسالة التوابع والزوابع ، وهى رحلة فيما وراء الطبيعة لشاعر جاس خلال وادى الجنّ ، والتقى فيه بشياطين الشعراء ، وحاورهم وحدّثهم كما حدثوه . ومن قول ابن بُرْد فيه :

---

(١) يقطر : يصرع .

لأيةِ خِصْـلَةٍ تبكيك عينى ومالى بالحسـاب لها يدانِ
أللهمِ المنوطةِ بالثريّا أمِ الشِّيَمَ المهذّبة الحسـان
أم القلمِ الذى قد كان يَجْنِي من القِرْطاسِ نُوّارَ البيان

ولكتّاب العرب المحدثين نصيبهم من هذه المراثى ، وخاصة من اشتغلوا منهم بالصحافة ، وساهموا فى حياتنا الأدبية ، ويكفى أن نرجع إلى ديوانى حافظ وشوقى ، فسنجد عندهما مراثى لكثيرين من الكتاب المعاصرين أمثال جورجى زيدان والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ويعقوب صروف أحد صاحبي مجلة المقتطف وصحيفة المقطم ، ومحمد المويلحى الذى كان يحرر مع أبيه إبراهيم صحيفة مصباح الشرق ، والذى ألف حديث عيسى بن هشام وصور فيه حياتنا المصرية فى أواخر القرن الماضى ناقدا ما اقتبسناه من أوربا من عادات وأخلاق ، ومجريا ذلك فى شكل قصصى يعتمد على الحوار ورسم الشخصيات ، وإلى هذا الكتاب يشير حافظ فى تأبينه له إذ يقول :

لو شهدتم (محمداً) وهو يُمْلى آىَ (عيسَى) ومعجزات الكتابِ[1]
وقفتْ حوله صفوفُ المعـانى وصفوفُ الألفاظ من كل بابِ
لعلمتُمْ بأنِ عَهْدَ ابن بَحْرٍ عاود الشرقَ بعد طول احتجابِ[2]

ويقول شوقى :

فى يد النَّشْءِ من بيان المويلحى مثلٌ ينفع الشبابَ اتبـاعُهْ
صورٌ من حقيقةٍ وخيالٍ هى إحسانُ فكرِه وابتداعُه

وإذا تركنا الكتّاب إلى الشعراء وجدناهم يحزنون على زملائهم الذين يسبقونهم إلى الموت حزنا يفضى بهم إلى التنفيس عن لوعتهم بالأبيات والمقطوعات أحيانا

---

(١) ورى حافظ فى كلمتى محمد وعيسى ، وهو يقصد محمد المويلحى وكتابه عيسى بن هشام .
(٢) ابن بحر هو عمرو بن بحر الجاحظ أشهر كتاب العصر العباسى .

وبالقصائد والمراثى المطولة أحياناً أخرى . وهذا التعاطف والتراحم بينهم من قديم ، وحتى بين من كانوا يتهاجون فإن الفرزدق كان يتعارك مع جرير ، ولهما نقائض مشهورة ، ولما ألمّ بالفرزدق طائف المنون بكاه جرير فى أشعار مختلفة ، منها قوله :

فُجِعنا بحمّال الديات ابن غالبٍ وحامى تميمٍ عِرْضِها والمُرَاجمِ [1]
بَكَيْناكَ حِدْثان الفراق وإنما بكيناكَ شَجْواً للأمور العظائم

ومن يرجع إلى كتب الأدب والتراجم فى العصر العباسى يجد الشعراء مكبّين على تأبين زملائهم الراحلين ، وهذا طبيعى بحكم الزمالة وما نشأ بينهم من صحبة وصداقة ، وهى صداقة روحية ، وكثيراً ما تكون صداقة تلمذة ، فتجتمع الأبوة الفنية مع الصداقة الروحية ، أو تكون الأخوة الأدبية التى تربط الشاعرين برباط أقوى من رباط الدم . وممن بكاهم إخوانهم وأعولوا فى بكائهم أبو تمام ، وفيه يقول الحسن بن وهب :

فُجِعَ القريضُ بخاتمِ الشعراء وغديرِ رَوْضَته حبيبِ الطائى
ماتا معا فتجاوروا فى حُفْرَةٍ وكذاكَ كانا قبلُ فى الأحْيَاء

ويقول على بن الجهم :

غاضتْ بدائع فِطْنـة الأوهامِ وعدت عليها نَكبَة الأيّامِ
وغدا القريضُ ضُئيلَ شَخْصٍ باكياً يشكو رزيـته إلى الأقلامِ
وتأوّهَتْ غُرَرُ القوافى بعده ورمى الزمانُ صحيحَها بسَقامِ
أَوْدَى مثقِّفُها ورائضُ صَعْبها وغديرُ روضتهـا أبو تمّامِ

ولما قتل المتنبى أقام الشعراء عليه المآتم فى كل مكان ، وممن رثاه فأحسن فى

---

(١) حمال الديات : الذى يحمل عن الناس ما يطلب منهم من الديات والمغارم ، والمراجم . المناضل والمدافع .

رثائه على إيجازه أبو القاسم مظفر بن على الطَّبَسى ، إذ يقول :

لا رَعَى الله سِرْبَ هذا الزمانِ   إذ دهانا فى مثل ذاك اللسانِ
ما رأى النـاسُ ثانىَ المتنبِّى   أىُّ ثانٍ يُرَى لبِكْرِ الزمانِ
كان من نفسه الكبيرة فى جَيْـــشٍ وفى كبرياء ذى سُلْطان
هو فى شعره نَبِىٌّ ولـكن   ظهرتْ معجزاته فى المعـانى

وكان أبو العلاء كثير التلاميذ، فلما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعراً مراثى يبكونه فيها ، ويبكون الشعر والعلم والثقافة الواسعة ، وفيه يقول على بن الهمام من مرثية طويلة :

إن كنتَ لم ترقِ الدماء زهادةً   فلقد أرقتَ اليوم من جَفْنى دِما
سَيَّرْتَ ذكْراً فى البلاد كأنه   مِسْكٌ مسامعَها يضَمِّخ أوفما
وترى الحجيج إذا ماأرادوا ليلةً   ذكراك أخرج فديةً من أحْرَما

وهو يشير فى البيت الأول إلى تحريمه على نفسه الحيوان ، وأنه لم يُرق دمه ليأكله ، ويقول فى البيت الأخير إن ذكراه طيب ، والطيب لا يحل للمحرم الحاج ، فإذا ذكرَه وجبَ عليه أن يؤدى الفدية .

وإذا كان شعراؤنا فى العصور الماضية قد أدى بعضهم لبعض حقوقهم من التأبين والبكاء فإنهم فى عصرنا الحديث يستبقون إلى هذا الواجب الأدبى استباقا ، فكل منهم يظهر وفاءه بزميله وأن كارثته فيه فوق أن تُحَدّ أو توصف، بل إنها كارثة الشعر والفن ، وأيضاً فإنها كارثة الوطن الذى أُصيب به وخرَج يشيعه كسير القلب والفؤاد . ولعل أهم شاعر لبست له مصر ثياب السواد فى مفتتح قرننا هو البارودى أبو شعرنا الحديث ، الذى نفخ فى روحه وبعثه من موته ورقاده ، وفيه يقول حافظ إبراهيم نادبا مشيدا بأمجاده الفنية :

لبَّيْكَ يا شاعراً ضَنَّ الزمانُ بهِ   على النُّهَى والقوافى والأناشيد[1]

---

(١) النهى : العقول .

تجرى السلاسةُ فى أثناء منطقهِ   تحت الفصاحة جَرْىَ الماء فى العودِ
لو حَنَّطوك بشعرٍ أنت قائلُه   غَنيتَ عن نَفحات المِسْك والعود

ثم يتحدث عن قصائده فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنها خير زادٍ له يوم الحساب ، ثم يعرض لمناصبه فى الثورة العرابية وقبلها ، كما يعرض لحروبه فى جيوش الترك ، ويقول :

لو أنصفوا أودعوه جَوْفَ لؤلؤةٍ   من كنز حكمته لا جَوْف أُخْدُودِ[1]
وكفَّنوه بدَرْج من صحائفهِ   أو واضحٍ من قميص الصبح مقدودِ[2]

وما يزال حافظ يشيد بشعره وفرائده الحسان التى بلغت من الجمال الفنى أروع مظاهره . وكما بكى حافظ البارودىَّ وأبَّنه بكى إسماعيل صبرى هو الآخر وأبنه تأبينا طريفا ، وفيه يقول :

أأوَّلَ يومٍ لعهد الربيع   تجفُّ الرياض ويَذْوَى الزَّهَرْ[3]
ويذبل زهرُ القريض الثَّرِىِّ   ويُقْفِر روض القوافى الغُرَرْ
ليهدأ عمانُ فغوَّاصُـهُ   أُصِيبَ وأمسى رهينَ الحُفَرْ[4]
يقول فيُرْخِصُ دُرَّ النحورِ   ويُغْلِى جُمانَ بناتِ الفِـكَرْ[5]

واستطرد يتحدث عن خصائصه فى شعره ، وأنه كان يعنى بتأليف المقطوعات القصيرة لكنها على قِصَرِها لها جمالها وحسنها ، ولها إعجازها وإبداعها ، بما أدّت من نفثات الهوى وتعاويذ الحب والجوى . وأبّنه شوقى بمرثية طويلة ،

---

(١) الأخدود : الحفرة فى الأرض ، والمراد بها القبر .
(٢) الدرج : ما يكتب فيه ، والمقدود : المشقوق .
(٣) يشير إلى أن إسماعيل صبرى توفى مع أول الربيع .
(٤) عمان : فى الجنوب الشرقى للجزيرة العربية على خليج العرب ، وتشتهر باللؤلؤ المستخرج من مياهها .
(٥) الجمان : اللؤلؤ .

ذكر فيها تلمذته له ورعايته الأدبية ، إذ يقول فى وصف قصيدته :

هذا هو الريحان إلا أنه   نفَحاتُ تلك الروضة المئناف (١)
والدرُّ إلا أن مَهْدَ يتيمه   بالأمس لُجَّةُ بَحْرِكَ القذَّاف
أيامَ أمرَحُ فى غبارك ناشئاً   نَهَجَ المِهارِ على غبار «خِصاف» (٢)
أتعلَّمُ الغايات كيف ترَام فى   مضمار فَضْلٍ أو مجال قواف

وواضح أن شوقى، يذكر له فضله عليه فى الشعر وفى التخلق بالأخلاق الكريمة . ولما سبقه حافظ إلى الدار الباقية بكاه بمرثية رائعة افتتحها بقوله :

قد كنتُ أوثر أن تقولَ رثائى   يا منصفَ الموتى من الأحياء

وما زال يتحدث عن حياته ووفاته لأصدقائه ، وشعره وما خسرت الفصحى بموته ، وكيف نعته البلاد العربية وبكته ، حتى قال :

يا حافظ الفصحى وحارسَ مجدِها   وإمامَ من نَجَلَتْ من البلغاء (٣)
جَدَّدْتَ أسلوبَ (الوليدِ) ولفظَه   وأتيتَ للدنيا بسحر (الطائى) (٤)

ولم يلبث نجم شوقى أن أفل بعد حافظ بقليل فنعته البلاد الناطقة بالضاد كلها ، ولم تبق بلدة إلا نشجت عليه وبكت ، ولم يبق شاعر من شعرائها إلا استوحى موته مرثية باكية يشيعه بها إلى مثواه الأخير . ومن رائع ما رُثى به قصيدة بشارة الخورى ، وفيها يقول :

قِفْ فى رُبَى الخُلْد واهتف باسْمِ شاعرِه   فسِدْرَة المُنْتَهى أدنى منابره

---

(١) الروضة المئناف : الروضة التى قلما يمر بها أحد .
(٢) المهار : جمع مهرة ، وخصاف : فرس مشهور عند العرب ، والتشبيه واضح .
(٣) نجلت : ولدت .
(٤) الوليد : البحترى ، والطائى : أبو تمام .

وامْسَحْ جبينكَ بالرُّكنِ الذى انبلجتْ أشعّةُ الوَحْيِ شعراً من منائرهِ

إلهةُ الشعر قامتْ عن ميامنـهِ وربّةُ النثر قامتْ عن مياسرهِ

والحورُ قصَّتْ شذوراً من غدائرها وأرسلتْهـا بديلا من ستائرهِ

ومن الأدباء الذين نعاهم الشعراء فى عصرنا جُبْران شاعر المهجر وكاتبه الفذّ ، ولزملائه من الشعراء فى ديار أمريكا مراث فيه تعبر عما عصف بقلوبهم من حزنهم على زميلهم حزناً عميقاً ، ومن قول نسيب عريضة فيه :

أيها الشاعر الألهىُّ طُوبَى لكَ فى الأَوْج حيث روحك تَرْتَعْ

أسْكَتَ البَيْنُ شَدْوَ نايك لـكنْ لم يزل لحْنُهُ يَرِنُّ ويُسْمَعْ

وأناشيدكَ الحســانُ ستبقى خير إرثٍ لأمّةٍ تتفجَّعْ

أرْزَ لبنان اطأطىء الهامَ واخشَعْ سكتَ الشاعر الذى كنت تَسْمَعْ

سيساميك فى جوارك قَـبْرٌ هو فى قلبـه أعزُّ وأرْفَعْ

وعلى هذه الشاكلة كلما سقطت القيثارة من يد شاعر فى عصرنا تولاه إخوانه وزملاؤه بالبكاء عليه ، ونثروا على قبره أزهار شعرهم ، وبثوه نفثاتهم الشجية .

٥

حفلات التأبين الحديثة

مر بنا فى تضاعيف حديثنا مايدل على أن أسلافنا عرفوا تأبين الجماعات من الشعراء لفقيد راحل ، إذ كانت تقف بقبر بعض الراحلين طوائف من الشعراء ، فترثيه ، وتؤبنه ، وتعرض لسجاياه ومناقبه ، وتتحدث عن علمه الغزير إن كان عالما ، وأدبه الخصب إن كان أديبا ، كاتبا أو شاعراً . ومعنى ذلك أنهم عرفوا التأبين الجماعي .

وهكذا شأن عصرنا ، فقد يقف الشعراء على قبور الراحلين ، وقد يعودون بعد وفاتهم ، فيحتفلون بذكراهم ، إما فى تمام الأربعين يوما من وداعهم ونزولهم فى مثواهم الأخير ، أو بعد ذلك، حسب الظروف والأحوال . وما تزال الصحف تطلع علينا من حين إلى حين بهذه الحفلات التى يتناول فيها الخطباء والشعراء سيرَ الراحلين .

وتتنوع هذه الحفلات ، فهى تارة تعرض لمصلح اجتماعى كبير أو صحفى خطير أو زعيم وطنى عظيم، أو شاعر عَنَتْ له الوجوه ، أو كاتب انحنت له الرءوس ، وفى دواوين شعرائنا قصائد كثيرة نظموها فى هذه الحفلات .

وتستطيع أن ترى صورة واضحة منها فى كتاب « ذكرى الشاعرين : حافظ وشوقى » لأحمد عبيد، فقد جمع فيه أكثر وأجمل ما قيل فى تأبينهما نثراً وشعرا ، وهو كتاب نفيس ، بما صوّر فيه كتابنا وشعراؤنا عمل الشاعرين جميعا .

ومن حين إلى آخر يظهر مثل هذا الكتاب . ومن الظواهر الطريفة أن المرأة اشتركت فى حياتنا الحديثة وأنها تقدمت تحمل اللواء فى الشعر وفى النثر وفى الحياة العامة .

وكان لمىّ زيادة دور كبير فى حياتنا الأدبية، وكان لها منتدى يجتمع إليه الأدباء والشعراء ، كما كان لها رسائل أدبية لطيفة . فلما توفيت بكاها البَرْق ونعتها الصحف ، وأقيم لها حفل تأبين تمجيداً لها ولأياديها وتحية لروحها وما وهبت من نفسها . وطُبعت الكلمات والقصائد التى ألقيت فى هذا الحفل ، ومما جاء فيها على لسان العقاد :

حىّ (مَيًّا) إن من شيَّع ميا منصفا حَىَّ اللسان العربيًّا
وجزى حَوّاء حَقًّا سَرْمَديا وجزى (مَيًّا) جزاءً أريحيًّا
للذى أسْدَتْ إلى أمِّ الكتابِ

وجزع فى عصرنا الكتاب والشعراء لموت السيدة هدى شعراوى زعيمة النهضة النسائية فى مصر، التى أسست من مالها دورا ومدارس لمن كبا بهم الحظ العاثر ، كما أخذت بأيدى كثير من الفتيات والفتيان ، ممن رأت لديهم مواهب عالية ،

فأرسلتهم إلى حواضر الغرب ليُكملوا علمهم وفنهم . وهذه الأيادى الكثيرة لم تذهب عبثا ، فقد تجمعت منها باقة عطرة من الذكرى ، نُثرت على روحها فى حفل تأبين كبير ، تحدث فيه جمهور من الكتاب والشعراء ، أحصوا أعمالها الباهرة ، وسجلوا جهودها الرائعة ، ولخليل مطران مرثية بديعة صور فيها ماقدمت لوطنها من أمجاد ومفاخر ، ومن قوله :

هُدَى ! بلغتِ بما أبليتِ منزلةً ... عَصْماء خالدة الذكرى على الحِقَبِ
فقد تفرَّدْتِ بالأفعـال باهرةً ... كما تفردتِ بالأقوال والخُطَبِ
مؤسَّساتك لو عُدَّت ولو وصفتْ ... لما انتهى عُجْبٌ إلا إلى عَجَبِ
آياتُ عصرٍ جديدٍ للرُّقىِّ يَرَى ... مستقبلَ الشعب فيها كلُّ مرتقب
بها تُعَدُّ البنـات الصالحات له ... والأمهات لجيـل عامل دَرِبِ

وليست المرأة وحدها التى تسترعى نظرنا فى هذه الحفلات الحديثة للتأبين ، فإننا نجد فيها تكريماً للنابغين من الفنانين ، لا الكتاب والشعراء فقط ، بل أيضاً النحَّاتين والرسامين ، وأصحاب الموسيقى والغناء ، ولشوقى مرثية طويلة ألقيت فى حفلة تذكارية تمجيداً للشيخ سلامة حجازى الذى تسنم قمة المجد فى فنى الغناء والتمثيل أوائل هذا القرن ، وفيها يقول :

يا ثَرَى النيلِ فى نواحيك طَيْرٌ ... كان دُنياً وكان فَرْحةَ جيلِ
لم يزل ينزلُ الخمـائلَ حتى ... حَلَّ فى ربوةٍ على سلسبيلِ
عبقريًّا كأنه زَنبَقُ الخُلْـ ... ـدِ على فَرْعة السَّرِىِّ الأسيل (١)
أين من مسمع الزمان أغانـ ... ـىٌّ عليهن روعةُ التمثيل
أين صوتٌ كأنه رنَّةُ البُلْـ ... ـبُل فى الناعم الوَريف الظّليل
فيه من نغمة المزامير مَعْنًى ... وعليهِ قداسةُ الترتيلِ

(١) السرى : الجدول والأسيل : الطويل المسترسل .

وإذا أخذنا نقرأ فى ديوانى حافظ وشوقى راعنا أنه لم يمت صاحب عمل مجيد ناصع فى حياتنا الحديثة أو صاحب رأى وعقيدة ، أو صاحب مثل وغاية نبيلة ، إلا اجتمع إخوانه على ذكراه ، وأقاموا له تأبينا حافلا ، ووقف حافظ معهم أو وقف شوقى ، أووقفا جميعاً ينثران مدامعهما وأشعارهما على الراحل الكريم . ويحذو حذوهما بقية الشعراء فى أقطارنا العربية .

وقد أخذت تظهر فى التأبين هنا وهناك تلوينات حديثة لم يكن يعرفها الشعراء فى العصور الماضية ، إذ كان الشاعر يحصر نفسه فى المناقب الفردية الخاصة بالراحل ، أما فى عصرنا الحديث فإن الشعراء أخذوا يعرضون فى رثائهم للمناقب الاجتماعية ، وما أسداه الفقيد لمجتمعه من وجوه بِرّ وإصلاح فى مختلف نواحيه ، فإذا مات مثلا قاسم أمين الداعى لتحرير المرأة عرض الشعراء فى رثائه لدعوته على نحو ما نجد عند حافظ وشوقى فى تأبينه ، ولو أنهما لم يكونا حينئذ من رأيه .

ولعل أهم التلوينات التى أدخلت على المرثية الحديثة ما انصبّ من النزعات السياسية والوطنية فقد نزل الاستعمار بالأمم الشرقية ، ولم يلبث أن ظهر فى كل بلد من بلادنا مجاهدون وزعماء استحقوا تمجيد أوطانهم . وكان كلما نعى البرق واحدا منهم هبّ شعراؤنا يوقعون على قيثاراتهم أشجان المواطنين وأحزانهم . وفى ديوانى حافظ وشوقى مراث لسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم ممن تقدموا الصفوف ، وضغطوا على المستعمر بكل ما يملكون من قوى فى أوطانهم . وهذا حافظ يقول فى مصطفى كامل :

شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته ... وعلمتُ منه مراتبَ الأقدارِ

ورأيتُ كيف تفى الشعوبُ رجالَهَا ... حَقّ الولاء وواجبَ الإكبار

تسعون ألفاً حول نعشك خُشّعٌ ... يمشون تحت لوائك السيَّار

خطوا بأدمعهم على وجه الثرى ... للحزن أسطاراً على أسطار

آناً يوالون الضجيجَ كأنهم ... ركبُ الحجيج بكعبة الزوّار

وتخالهم آناً لفرط خشوعهم ... عند المصلَّى يُنصتون لقارى

وواضح أنه يصور فجيعة الأمة المصرية فيه ، والمرثية كلها تدور حول جهاده وما غرس فى وطنه من حراب للمستعمر بما كان يكتب فى صحيفة « اللواء » وبما كان يخطب فى أمته ضد كرومر والإنكليز ، وبمواقفه الوطنية التى ألهبت مشاعرَ المصريين ، وسعرت نيران الصراع فيهم ضد المستعمرين الغاشمين . ومرثية شوقى فى سعد زغلول التى يستهلها بقوله :

شيَّعوا الشمس ومالوا بضُحاها   وانحَنَى الشرقُ عليها فبكاها

أروع ما دبجته يراعته فى الرثاء الوطنى . وهو يضيف إلى مراثيه الوطنية مراثى لزعماء العرب وقادتهم فى بلدانهم المختلفة ، فهذا فوزى الغزى أحد المجاهدين ضد الفرنسيين فى سوريا الشقيقة ، تقيم له بلاذه حفل تأبين ، فيأبى شوقى إلا أن يرفرف بروحه مع المؤبنين ، فيرسل بمرثية تُتْلَى فى الحفل ، وفيها يقول :

يا (فوز) تلك دمشقُ خلفَ سوادها   تَرْمِى مكانك بالعيون وترمقُ[1]

(بَرَدَى) وراء ضفافهِ مستعبرٌ   والحورُ محاول الضفائر مُطْرِقُ[2]

والطير فى جنبات (دُمَّرَ) نوَّحٌ   يَجِدُ الهمومَ خليُّهنَّ ويأرَقُ[3]

وعلى هذا النحو أصبح عالمنا العربى الحديث أشبه بالجسد الواحد ، إذا اشتكى فيه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والآلام

---

(١) سواد دمشق : القرى التابعة لها .

(٢) بردى : نهر يشق دمشق ، والحور : شجر ، وضفائره : غصونه .

(٣) دمر : من ضواحى دمشق ، والخلى : الخالى من الهموم .

الفصل الثالث

العزاء

١

معنى العزاء

أصل العزاء الصبر ، ثم اقتصر استعماله فى الصبر على كارثة الموت ، وأن يرضى من فقدعزيزا بما فاجأه بهالقدر ، فتلك سُنَّة الكون ، نولد ، ونمضى فى الحياة سعداء أو أشقياء ، ثم نموت، وكأن الناس راحلون وهم لا يفكون عُقَد رَحْلهم إلا فى أجداثهم، فهى قرارهم، وهى غايتهم التى ينتهون إليها ، ولا مفر لهم منها ولا خلاص .

وإذن فليقبلوا الحياة كما هى ، ليقبلوها على أنها دار زوال وانتقال ، وليست دار بقاء واستمرار ، فكل يلعب دوره ويمضى ، ولا شىء يدوم . يقبل النهار المشرق ثم يدبر ويخرج الليل المظلم ، وينعقد السحاب وتبكى السماء ثم يصحو الجو ويصفو . والإنسان ضعيف أمام هذا التغير والتقلب ، لا يملك من أمره ولا من حياته شيئا ، فسرعان ما يعصف به الموت ، فإذا هو محمول على آلة حَدْباء .

إنه عاجز ، وليس له إلا أن يذعن إذعانا خالصا ، إذعاناً لا تشوبه مقاومة ، وهل من أمل فى مقاومة ، وهو يرى نفسه كل يوم مشدوداً فى خيوط قوية بيد قاهرة تدبر شئونه ، وقد تنتهى به إلى الإخفاق فى أمله بل فى روحه ووجوده ، فإذا هو لا يستطيع أن يستأنف نشاطاً ولا فوزا وانتصارا .

وهؤلاء الذين نحبهم ونؤثرهم على أنفسنا من آباء وأبناء وإخوة ماذا نستطيع أن نقدم لهم حين تَحين ساعتهم ؟ إننا مهما فكرنا وقدرنا لن ندفع عنهم صيحة الموت البغيضة . ونحن نذرف الدموع لفراقهم مدرارا ، ولكن ماذا تفيد الدموع ؟ وماذا يفيد الأسى والحزن ؟ إنه لا بد من أن نحتمل المكروه ونتعزى ونصبر على ما نزل بنا .

وكان شاعرُ الجاهلية القديم يفكر فى هذا كله ، فكان يحزن ويبكى ويلتاع ويعبر عن ذلك تعبيرا قويا فى شعره ، ثم يعود إلى نفسه ، فيرى أن كل ما يصنعه لا يغنيه شيئا ، لأن المحنة فى حقيقتها محنة كبيرة ، محنة الناس جميعا ، يُمتحنون بها صباح مساء ، ولا يستطيعون لها ردا ولا دفعا . فليترك البكاء والدموع وليستسلم للموت مخذولا ، بل يائسا مقهورا ، فالناس كلهم يموتون والناس كلهم يصابون بحَميم أو قريب ، ولعل ذلك ما جعل الخنساء تقول :

ولولا كثرةُ الباكين حولى ... على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يبكون مثلَ أخى ولكنْ ... أُعَزِّى النفسَ عنهُ بالتأسِّى

فهى تجد فى بكاء غيرها ما يعزّيها عن أخيها ويسليها عن مصيبتها فيه ، وكان غيرُها من الشعراء يمد بصره إلى أفق أوسع ، فيرى أن الحزن والبكاء لايردّان أحدا ، وأن حريّا به أن يكون جلدا صابرا على المصيبة تلم به ، ولا يستشعر خذلانا ولا ضعفا .

ونجد عند كثير من الجاهليين نزعة إلى الاستسلام للقدر ، فالموت كأس يذوقها الجميع ، لم يسلم منها أحد ، لا ملك ولا سوقة ، وكم من دولة دالت وجماعة بادت ، من مثل قوم نوح وعاد وثمود ومثل كسرى وسابور ملكى الفرس وملوك الروم المختلفين وملوك الحيرة . ولعدىّ بن زيد العبّادى شعر كثير فى ذلك ، يقول فى بعض قصيده :

أين أهلُ الديار من قوم نوحٍ ... ثم عاد من بعدها وثمود

ويقول :

أين كسرى، كسرى الملوك أنوشِرْ   وان أم أين قبله سابورُ
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ   رّوم لم يبق منهم مذكورُ

وكان الجاهليون يثيرون هذه الأفكار وما يشبهها للتعزى عن الموت وبيان أن داعيه لا يقلع ، وأن كل إنسان إليه يرجع .

ولما عمت أضواء الإسلام فى النفوس أخذت تظهر معه نزعة جديدة فى العزاء تقوم على التسليم لله والرضا بقضائه والصبر على امتحانه احتساباً وطلباً للأجر والمثوبة من عنده واقتداء بقوله سبحانه «وبَشِّرِ الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

٢

العزاء فى الأهل

كانت العادة فى الجاهلية أن يعزّى الشاعر نفسه إزاء من يفقد من أهله وأشراف قبيلته ، فعزاؤه يوجَّه قبل كل شىء إلى نفسه ، ثم إلى من حوله . ولما جاء الإسلام ونشأت طبقات الخلفاء والولاة ، وأخذت تتألف حول كل خليفة وأمير أو حاكم كبير طبقةٌ من الشعراء تقف نفسها على مديحه وتسليته إن أراد التسلية رأينا هذه الطبقة تعمد حين تلم به مصيبة إلى تعزيته فيها . ودارَ ذلك أكثر ما دار حول فقد الأبناء وأفلاذ الأكباد ، فكان الشاعر إذا مات ابنٌ لخليفة يبادر إلى تخفيف بلواه فيه بأبيات تحدّ من لوعته ، وتكسر من فجيعته ، بما يذكر من أن الموت حتْم واجب على الناس ، فكل نفس ذائقة الموت ، وكل إنسان راحل إلى القبر ، على نحو ما قال بعض الشعراء لعمر بن عبد العزيز وقد تُوُفِّيَ ابنه عبد الملك :

تعزَّ أميرَ المؤمنين فإنه لما قد ترى يُغذَى الصغير ويولَدُ
هل ابنُك إلا من سلالة آدمٍ لكلٍّ على حَوْض المنية مَوْرِدُ

وقد يعرض الشعراء لمعان اجتماعية ، وخاصة معنى الشماتة فى المصيبة ، فيتحدثون عن أن الموت لا يسلم منه أحد ، وأن من لم يدركه اليوم فى عزيز له يدركه غدا ، فيُشْطَرُ منه أصله أو فرعه ، ويفجع فى أحبته ، وتقرَّح جفونه فى أهلِ مودته . وألمّ ابن عبد الأعلى بهذا المعنى فى تعزيته سليمانَ بن عبد الملك فى ولىِّ عهده وأكبر ولده أيوب ، إذ يقول :

ولقد أقولُ لذى الشماتة إذ رأى جَزَعى ومن يَذُقِ الحوادث يجْزَعِ
أَبْشِرْ فقد قرع الحوادثُ مَرْوتى وافرحْ بمَرْوتك التى لم تُقْرَعِ
إن عِشْتَ تُفْجَع بالأحبَّةِ كلهم أو يُفْجَعوا بك إنْ بهم لم تُفْجَعِ
أيوبُ من يَشْمَتْ بموتك لم يُطِقْ عن نفسه دَفْعاً وهل من مَدْفع

ووقف الشعراء فى مراثى الخلفاء بأبنائهم عند فكرة الاحتساب وطلب ما عند الله ، وأكثروا فى ذلك كما أكثروا من الحديث عن خسارة الدين بموتهم وانهيار أركانه بفقدهم ، وفى ذلك يقول أشجع معزيا هرون الرشيد فى ابن له مات شابا :

نقصٌ من الدين ومن أهلهِ نَقْصُ المنايا من بنى هاشمِ
قدَّمتَهُ فاصبرْ على فقدهِ إلى أبيهِ وأبى القاسمِ

وهو يريد بأبى القاسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقول له إنه فى ميزانك يوم القيامة ، وقد قدمته فلا تجزع ، واصبر حتى يكتب لك فى باقياتك الصالحات . ومن تعازى الخلفاء المشهورة فى أبنائهم مرثية الشاعر المصرى كمال الدين بن النبيه فى على بن الخليفة الناصر لدين الله ، وهو يستهلها بقوله :

الناسُ للموت كَخَيْلِ الطِّرادْ فالسابقُ السابقُ منها الجوادْ

والله لا يدعو إلى داره ... إلا من استصلح من ذا العباد
والموت نقّادٌ على كفه ... جواهرٌ يختار منها الجياد
والمرء كالظلّ ولا بُدَّ أن ... يزول ذاك الظلُّ بعد امتداد

ثم أخذ يبكيه حتى انتهى إلى قوله :

خليفةَ الله اصطبرْ واحتَسِبْ ... فما وَهَى البَيْتُ وأنت العِماد
فى العلم والحِلْم بكم يُقْتَدَى ... إذا دَجَا الخطبُ وضلَّ الرشادْ
وأنت لجٌّ البحر ما ضرَّهُ ... أن سال من بعض نواحيه وادْ

وكثيراً ما كان الشعراء يحوّلون التعزية إلى البكاء على الفقيد والإشادة به ، كأنهم يرون فى ذلك ما ينفس بعض الشيء عن الأب الحزين ، وكأنهم يداوون القَرْح بالقَرْح ، فهم يبكون معه ويسترجعون حتى تثوب نفسه إلى رشدها وتسكن بعد فورة الدموع وثورة النواح والأنين ، فقد أدِّيت للولد الحقوق وكأن التراب لم يُوار إلا أعظمه ، أما ذكراه فباقية ، وهى ذكرى تُبكى ، ونفس البكاء فيها هو الصبر والتأسى . ومعنى ثان فى هذا العزاء ، كأن الشاعر يقول إن الناس فداء هذه الخلال ، وليس بينهم إلا من يفدى الراحل الكريم . ومن هذا اللون قولُ أبى تمام فى ابنين لعبد الله بن طاهر صاحب خُراسان لعهد المأمون ، وكانا ماتا صغيرين فى يوم واحد :

نَجْمان شاء اللهُ ألا يطلُعا ... إلا ارتدادَ الطَّرْف حتى يأفُلا
إن الفجيعة بالرياض نواضراً ... لأجلُّ منها بالرياض ذوابلا
لو يُنْسآن لكان هذا غارباً ... للمكرمات وكان هذا كاهلا[1]
لهفى على تلك الشواهد فيهما ... لو أُمْهِلَتْ حتى تكون شمائلا
لغدا سكونهما حِجىً وصباهما ... حِلْماً وتلك الأريحيَّةُ نائلا

---

(١) ينسأ : يؤجل ، والغارب : أسفل العنق إلى الظهر .

إن الهلال إذا رأيت نموَّه أيقنتَ أنْ سيصيرُ بَدْراً كاملا

فهو يبكى طفلين فى المهد ، ومع ذلك أبى إلا أن يخلع عليهما شواهد لشمائل زكية ، وقد أخذ يصورهما بصور تُكبر من المصيبة فيهما ، وكأنه يريد أن يشفى غُلَّة أبيهما ويطفىء حرقة فؤاده ، فهما روضان ذبلا فى إبانهما ، وهلالان أصابهما المحاق فى أولهما ، وهما نفحة من أبيهما لم تلبث أن فنيت وذابت فى خِضَمّ الحياة .

ومن أطرف ما جاء فى عزاء الأبناء مرثية للمتنبى فى أبى الهيجاء بن سيف الدولة ، فقد رحل عن أبيه إلى الدار الباقية قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، فبكاه المتنبى وعزاه فيه بقصيدة رائعة من قصائده ، افتتحها بوصف الحزن عليه وخمش النساء لوجوههن ولطمهن وندبهن ، وقال إن مثله لا يُبْكَى عليه بقدر سِنّه ، فهو صغير ، وإنما يبكى عليه بقدر أصله وشرفه ، ثم توجه إلى سيف الدولة قائلا :

عزاءَك سيفَ الدولة المقتدَى به فإنك نَصْلٌ والشدائدُ للنَّصْلِ
ولم أر أعْصَى منك للحُزْن عَبْرَةً وأثبتَ عَقْلًا والقلوبُ بلا عَقْلِ
ومن كان ذا نفْسٍ كنَفْسِك حُرَّةٍ ففيه لها مُغْنٍ وفيها له مُسْلِ

ورجع يتحدث عن الموت الذى نزل بهذا الغلام مستعبرا باكيا ، مستخرجا العظات على عادته ، فالدنيا كلها غرور ، والبقاء فيها قليل ، واستمرَّ فى ذمها ، حتى انتهى غاضبا إلى قوله :

وما الدهرُ أهْلٌ أنْ تؤمَّلَ عنده حياةٌ وأن يُشْتَاقَ فيه إلى النَّسْلِ

والعزاء فى الأبناء كثير ، أما البنات فيندر العزاء فيهن وخاصة فى العصور الأولى ، وكأن هذا أثر من آثار عرب الجاهلية الذين يقول فيهم القرآن الكريم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كَظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به ، أيمسكه على هُون أم يدسُّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » .

ومن الخلفاء الذين حزنوا حزناً شديداً لفقد إحدى بناتهم الخليفة المهدى ،

ومن عزّاه فيها أبو العتاهية . وهذا بعض عزائه :

كأن كلّ نعيمٍ أنت ذائقهُ   من لذة العيش يحكى لمعة الآل
لا تلعبنّ بك الدنيا وأنت ترى   ما شئتَ من عِبَرٍ فيها وأمثالِ
ما حيلةُ الموت إلا كل صالحةٍ   أولا فما حيلةٌ فيــهِ لمحتالِ

ونغمة أبى العتاهية المشهور بها من الوعظ والتزهيد فى الحياة وبيان أن كلها مصائب واضحة هنا . وهو من أكثر الشعراء حديثا عن الموت ، وأنه لا بد وافد على حال ، فالعاقل من يتجهز له ويعد نفسه لفراق الأهل والمال .

وعزّى البحترى أحد بنى حُميد المشهورين بالشجاعة والبطولة لعصره فى ابنة له ماتت ، ومن الغريب أنه لم يجد باباً يدخله إلى عزائه فيها إلا ما كان يستشعره العرب فى بناتهم ، فقد مضى يواسيه على هذا النحو :

الأسى واجبٌ على الُحرِّ إمَّا   نيَّــةً حُـرَّةً وإما رياء
أتبـكّى من لايُنَازِلُ بالسَّيْـ   ـفِ مُشِيحا ولا يهزُّ اللّواء[1]
والفتَى من رأى القبور لمن طا   ب به من بَناتهِ أكْفاء
لَسْنَ من زينة الحياة لَعدِّ اللـــه   منهـا الأموالَ والأبناء
قد ولَدْنَ الأعداء قِدْما وورَّثْـ   ـنَ التِّلاد الأقاصيَ البُعَدَاء[2]
لم يَئِدْ تِرْبَهُنَّ قيسُ تميمٍ   عَيْلةً بل حَمِيَّةً وإباء[3]
وتلفَّتْ إلى القبائل فانظرْ   أمهاتٍ يُنْسَبْنَ أم آباء
واستزلَّ الشيطان آدمَ فى الجنَّـ   ـةِ لما أغرَى به حوّاء

---

(١) المشيح : المانع لما وراء ظهره .
(٢) التلاد : المال القديم .
(٣) قيس : هو قيس بن عاصم التميمى ، وكان يئد كل بنت تولد له : والترب : الجماعة ، والعيلة : الفقر .

ولعمرى ما العجز عندىَ إلا　　أن تبيتَ الرجالُ تبكى النساء

فهو يحمد له موت ابنته ، وأن كان القبر كُفْئَها ، ويأخذ فى تعداد مساوئ المرأة فى رأيه ، فهى لا تنازل الأبطال ، وقد تلد الأعداء ، وهى تنقل المال الموروث من بيت أبيها إلى الأقاصى الغرباء . إن كل امرأة حرية بالموت ، وكان قيس بن عاصم — فى رأيه — محقا فى وأد بناته ؛ ويقول إن الله لم يعدهن فى زينة الدنيا إذ قال جل وعز « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . وهذه مغالطة من البحترى ، لأنه يعرف أن جمع الذكور والإناث يغلَّب فيه الطّرف الأول ، فكلمة البنون فى الآية الكريمة تشمل البنات ، وقد رأينا حملة القرآن على العرب لنفس هذا الموقف الذى يقفه البحترى . وغالط مغالطة أخرى فى أن العرب لا تنسب إلى الأمهات . بينما النسب إلى الأمهات عندهم شائع فى القبائل وفى الأفراد .

والحق أن العزاء هنا يتحول إلى ما يشبه هجاء المرأة . وهى على كل حال نظرة تستمد من القديم . وتلا البحترىَّ كثيرٌ من الشعراء يذهبون هذا المذهب مثل كشاجم فى قوله :

تأسَّ يا أبا بَكْرِ　　لموت الحُرَّةِ البِكْرِ
فقد زوَّجتَها القبْرَ　　وما كالقَبْر من صِهْرِ
وعُوِّضْتَ بها الأجْر　　وما كالأجرِ من مَهْر
زفافٌ أهديتْ فيهِ　　من الخِدْرِ إلى القبْرِ
وقد يُختار فى المكرو　　ه للمرء وما يَدْرى
فقابلْ نعمةَ اللهِ　　وما أَوْلاكَ من شُكْرِ

ولعل من الواجب أن نذكر هنا أن هذه النظرة تغيرت فى عصرنا ، ولم يعد لها ظل ولا ما يشبه الظل فى شعرنا ، إذ أصبح للمرأة شأن كبير فى حياتنا ، وأصبحت ركنا قويا فى معيشتنا المادية والعقلية ، ولم تعد هينة على النفوس ، بل

أصبحت ذات منزلة كبيرة ، وقد ساهمت فى كل شئوننا أثناء السلم وفى الحرب ، ونالت كثيرا من حقوقها ، وهى فى سبيل الظفر ببقية الحقوق . ومن هنا اختلفت اللهجة فى رثائها وفى التعزية فيها ، ولم تعد مثلُ أفكار البحترى وكشاجم تجرى على ألسنة الشعراء ، إنما يجرى مثل قول حافظ معزياً للبارودى فى كريمته :

يا بنتَ (محمودٍ) يعزُّ على الورَى ... لمسُ التراب لجسمكِ المنهوك

تركوا شبابك فيه نَهباً للبلَى ... واهاً لغَضٍّ شبابكَ المتروك[1]

وحَثَوْهُ فوق سناكِ يا شمس الضُّحى ... فبكى له بَدْرُ السماء أخوكِ[2]

يا نفسَ (محمودٍ) وأنتِ عليمةٌ ... بطريق هذا العالم المسلوك

عهدوكِ لا تتصدّعين لحادثٍ ... أوَ أنتِ باقيةٌ كما عهدوكِ

هذا التراب — وأنتِ أعلم — ملتقى ... هذا الورَى من سوقةٍ وملوك

وهذه نغمة أخرى فيها تقدير ، واعتراف بجلال الرُّزء . وقد مرَّ فى حفلات التأبين ما يوضح المساواة التامة فى عصرنا بين فقد النساء وفقد الرجال

على أن شعراءنا القدماء إذا كانوا قد قصروا فى رثاء البنات فإنهم لم يقصروا فى رثاء الأخوات والأمهات وربما كان المتنبي خير من عزّى فيهن ، فقد توفيت أخت سيف الدولة ، وهو نازل برحابه ، يغمره بصلاته ، فنظم فيها قصيدة بديعة من قصائده ، تحدث فيها عن غدر الموت وأثرِ نعيها فى الناس وأثنى على خلالها وصفاتها ، وما زال يثنى عليها ، حتى قال :

فإن تكن خُلِقَتْ أُنْثَى لقد خلقت ... كريمةً غير أنثى العقل والحسَب

وإن تكن تَغْلبُ الغلباءُ عنصرَها ... فإن فى الخمر معنى ليس فى العِنَبِ

فليت طالعةَ الشمسين غائبةٌ ... وليت غائبة الشمسين لم تَغِبِ

---

(١) الغضُ : الناعم .

(٢) حثا التراب : هاله .

فهى إن كانت أنثى الخلقة فإنها فى الشرف والعقل أعلى من الرجال ، وإن يكن أصلها التغلبى كريما فإنها أفضل من أصلها لمحاسنها وشيمها ومعانيها الطيبة ثم يتمنى لو أن الشمس غابت وفقدت ،ولم تغب أخت سيف الدولة ولا فقدت .

والتفت المتنبى بعد ثنائه إلى سيف الدولة يحدثه عن الأيام وعن أخت له قبلها فقدها ، وأشادبه ، ودعا لهأن لا تناله الليالى فإنها إن ضربت أصمت ، وحطمت القوى بالضعيف ، كما دعا له أن لا تعين من عاداه، ثم تحدث عن فجعات الدهر وأن الإنسان يصاب دائماً بمحن ليست فى حسابه .

وللمتنبى تعزية أخرى لسيف الدولة فى أمه ، وهى لا تقل عن هذه التعزية روعة ولا جمالا ، افتتحها بأننا نعد السيوف والرماح لمنازلة الأعداء ، وتخترمنا المنون دون قتال أو نزال ، ومضى يتحدث عن عشق الناس للدنيا ، وكيف أن وصالها لا يدوم. وتحول يصف كثرة ما يتوالى عليه من مصائب الدهر، ثم انتقل إلى رثاء أم سيف الدولة فأبنها مبالغا فى تأبينه، مضفيا عليها خير الصفات وأجملها وأنبلها ، وما زال فى ذلك ، حتى قال مخاطباً سيف الدولة :

أَسَيْفَ الدولةِ استنجدْ بصبرٍ وكيف بمثل صبرك للجبالِ
فأنت تعلّم الناس التعزّى وخوضَ الموت فى الحرب السِّجالِ
وحالاتُ الزمان عليك شتّى وحالك واحدٌ فى كل حالِ

فهو يدعوه أن يستعين على مصيبته فى أمه بالصبر ،لأنه أهله ، إذ له ثبات يفوق ثبات الجبال وركانتها . ثم قال له : إن الناس يتعلمون منك العزاء والصبر على اقتحام الموت وغمراته الشداد ، وإن الزمان نفسه ليتلون كالحرباء بألوان مختلفة فى السراء والضراء ، أما أنت فثابت على حال واحدة فى الشدة والرخاء ، فمثلك حرى بأن لا يهن فى هذه النازلة ، وأن لا يصيبه خورولا ضعف . ومن أبيات هذه المرثية :

ولو كان النساء كمن فقدْنا لفُضِّلت النساء على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشمس عَيْبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

وواضح أنه احتج لتفضيل النساء على الرجال بحجة لطيفة ، فالشمس مؤنثة وهى تفضل الهلال بنورها الذى يغمر الآفاق .

٣

العزاء والتهنئة

لم نتحدث عن العزاء فى الآباء وهو كثير ، غير أننا نقف منه عند موضوع طريف ، وذلك أن الخلفاء والسلاطين كانوا يتوارثون دولهم وإماراتهم ، فكان الشاعر يقوم بين يدى الخليفة أو السلطان الجديد يعزيه فى أبيه ويهنئه بحكومته ودولته وما انتهى إليه من خلافة أو إمارة .

وأول من فتق هذا الموضوع ، وأظهر براعة فيه عبد الله بن همّام السّلولىّ ، وذلك أن معاوية توفى وخلفه ابنه يزيد ، فلم يقدم أحد على تعزيته لدقة الموقف وصعوبته ، وما زالوا كذلك حتى فتح لهم ابن همام باب الكلام ، فقال :

اصْبِرْ يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ   واشكرْ حِباء الذى بالمُلْك حاباكا[1]

لا رُزْءَ أعظمُ فى الأقوام قد علموا   مما رُزِئْتَ ولا عُقْبى كعُقْباكا

أصبحتَ راعىَ هذا الخلْقِ كلهمُ   فأنتَ ترعاهمُ والله يرعاكا

وفى معاويةَ الباقى لنا خَلَفٌ   إذا بقيتَ فلا نَسْمَعْ بمنْعاكا

ومعاوية الذى يشير إليه فى البيت الأخير هو ابن يزيد وولى عهده . والأبيات فيها براعة ، وفيها دقة بعيدة فى الإحساس ، ولطف ورقة فى الشعور .

وممن وقف هذا الموقف الدقيق ، وأحسن فيه ، بل كاد يقلب لحظته الحزينة إلى لحظة سرور وفرح أبو الشّيص الشاعر العباسى ، فإنه قام بين يدى الأمين بعد وفاة أبيه هارون فى طوس إحدى مدن إيران ، فقال :

جَرَتْ جَوَارٍ بالسَّعْدِ والنَّحْسِ   فنحن فى وحْشَةٍ وفى أُنْسِ

---

(١) المقة : المحبة ، والحباء : العطاء .

العينُ تبكى والسِّنُّ ضاحكةٌ فنحنُ فى مأتمٍ وفى عُرُسِ
يُضحكنا القائم الأمينُ وتُبْـ كينا وفاة الرشيد بالأمسِ
بدران : بَدرٌ أضحَى ببغداد فى الـ خُلْد وبدرٌ بطوسَ فى الرَّمس (١)

وتعبر هذه الأبيات خير تعبير عن فرحة الشعراء بالأمين ، إذ كان محبوبا منهم ، قريبا إلى نفوسهم .

ولما توفى المعتصم وخلفه ابنه هرون الواثق تقدم إليه أبو تمام يعزيه ويهنيه بقصيدة طويلة ، افتتحها بالحزن على الراحل والإشادة بمناقبه ومحامده ، وما زال يدور فى هذين المعنيين حتّى قال :

ما دام هرونُ الخليفةَ فالهُدَى فى غبطةٍ موصولةٍ بدوامِ
لله أىُّ حياةٍ انبعثتْ لنا يوم الخميس وبعد أىِّ حِمام (٢)
تلك الرزيةُ لا رَزِيَّة مثلُها والقَسْم ليس كسائر الأقسام
ما إن رأى الأقوامُ شمساً قبلها أفلَتْ فلم تعقبْهمُ بظلام
أكرمْ بيومهم الذى مُلِّكتَهم فى صَدْرِهِ وبعامهم من عامِ

واستطرد فى مدح الواثق بعد ذلك .

وعلى هذه الشاكلة أخذ الشعراء يصنعون فى العزاء والتهنئة قصائد يُلمون فيها بفضائل السابق واللاحق ، ويقولون إن ميزان الدولة والأمة لن يميل ، إذ تولته يد عادلة ، بل إن هذا الخليفة الجديد أرسلته العناية الإلهية لتجبر به الأمة ، ويتم لها صلاحها واستقامتها . وكثيرٌ هم الشعراء الذين وقفوا هذا الموقف ، وممن جلَّى فيه عبد الله بن الحسن الجعفرى ، فقد مثل بين يدى العزيز الخليفة الفاطمى يعزيه فى أبيه ويهنئه بخلافة مصر قائلا :

---

(١) الخلد : قصر الخلافة ببغداد ، الرمس : القبر .
(٢) الحمام : الموت .

قد أصبح الجوهر العلويُّ منتقلا ... فى خير مَن كان مِن خَيْر الورى بَدَلا
يا مِنْحةً كَملتْ فى محنةٍ عظمتْ ... لولاك فى الدهر ما نال امرؤٌ أملا
قام العزيز بما أفْضَى المعزُّ بهِ ... إليه مضطلعا بالعِبْء مُحْتمِلا
فقام أحفظُ مسترعًى رَعَى فكفى ... من بعد خير إمامٍ قوَّمَ المَيلا(١)
فإن مضى كافلُ الدنيا وما ضمنتْ ... فذا ابنُه كافلٌ عنه بما كفلا(٢)
وإنْ هَوَى الجبل الراسى فذا جبلٌ ... راسٍ لنا بعده أعظمْ به جَبَلا
عَمَّتْ خلافته الدنيا برونقها ... كأنه الشمس فيها حَلَّتِ الحَمَلا(٣)

وفى الأبيات نزعة شيعية واضحة ، فهو يتحدث عن الجوهر العلوى وكيف انتقل من المعز إلى ابنه ، ويسميهما كافلى الدنيا ، ويجعل العزيز أحفَظ من رعى العباد ، وما يزال يقابل بين الأب وابنه مترحما معزيا ، ومادحا مهنئا ، مستظهرا لبعض العقائد الشيعية .

وممن أجاد فى هذا الموضوع ابن زيدون شاعر الأندلس المشهور ، فقد توفى أبو الحزم جَهْوَر ملك قرطبة ، وخلفه ابنه أبوالوليد ، وكان صديقا له ، فنظم قصيدة بارعة ، استهلها بالعزاء والتهنئة على هذا النمط :

ألم تَرَ أن الشمس قد ضمَّها القبْرُ ... وأن قد كفانا فَقْدَها القمَرُ البَدْرُ
وأنّ الحيَا إن كان أقْلَعَ صَوْبُهُ ... فقد فاض للآمال فى إثرهِ البَحْرُ(٤)
إساءةُ دَهْرٍ أحْسَنَ الفِعْلَ بعدها ... وذَنْبُ زمانٍ جاء يَتْبَعُهُ العُذْرُ
فلا يَتَهَنَّ الكاشحون فما دَجَا ... لنا الليل إلا ريثما طلع الفَجْرُ(٥)
فقل للحيارى قد بَدَا عَلَمُ الهُدَى ... وللطامع المغرور قد قُضِيَ الأمر

---

(١) الميل : العوج .
(٢) الكافل : الضامن .
(٣) الحمل : أول البروج .
(٤) الحيا ، المطر : والصوب : الانصباب .
(٥) الكاشحون : الأعداء .

وفى كل مكان من العالم الإسلامى نجد الشعراء يقفون هذا الموقف من الحكام ، يعزونهم ويهنئونهم معبرين عن فرحة الناس بهم واستبشارهم بتسلمهم لمقاليد الأمور بعد آبائهم ، منوّهين بما تأمله البلاد من نعم تتم وآلاء تعمّ .

ولابن نباتة أبيات تدور على كل لسان قالها يعزى بها السلطان الأفضل صاحب حَماة فى أبيه ويهنئه على تحول الملك إليه ، وهى تجرى على هذا النحو :

هناءٌ محا ذاك العزاءَ المقدَّما	فما عَبَس المحزونُ حتى تبسَّما
ثغورُ ابتسام فى ثغور مدامعٍ	شبيهان لا يمتاز ذو السَّبْق منهما
سقى الغيثُ عنا تُرْبَةَ الملك الذى	عهدنا سجاياه أبرَّ وأكْرَما
ودامتْ يدالنعمى على الملك الذى	تدانت له الدنيا وعزَّ به الحِمَى
مليكان : هذا قدهوى لضريحهِ	برَغْمى ، وهذا للأسِرَّة قد سَمَا

وكل هذه براعات تفنن الشعراء فى إخراجها وتصويرها ، حتى يقلبوا الحزن مسرة والبؤس نعيما ، فإذا كان اليوم قد استهل عابسا مكفهرا ، فإنه انفرط مستبشرا مبتهجا ، إنه يوم مأتم وعرس ، وشقاء وسعادة ، وظلام وضياء ، والضياء هو الذى يسود ويُشرق فى جنبات الدولة والأمة كما يشرق النهار . والحق أن شعراءنا أجادوا فى هذا الموقف ، واستوفوا فيه حظوظا لا بأس بها من المقدرة والمهارة .

٤

الحياة والموت والخلود

دارت هذه المعانى الثلاث فى كثير من قصائد العزاء ، إذ كان من يبكى ميتا أو يعزّى فيه يعرض للحياة وأنها زائلة ، وأن الموت نهاية كل شخص ، وأن على الناس أن يفكروا دائما فى هذا المصير الذى ينتظرهم ، وأن يتجهزوا له ويعدّوا زادهم قبل أن تأزف الآزفة وتحل الكارثة ، وهى كارثة مقررة

لا مفرّ منها ولا محيص .

وكانت هذه الأفكار تمر بمخيلة الشاعر الجاهلى ، وكان يلم بها ، ولكن فى سذاجة وبساطة تلائم حياته ، فلما ارتقى العقل العربى أخذت هذه الأفكار تتشعب وتتفرع ، وتمدّ جذورها فى طبقات جديدة من الثقافة وفهم الحياة وما قرأ العرب عند الأمم الأجنبية من حكم وآراء فلسفية .

وأبو العتاهية الشاعر العباسى أول من بسط الحديثَ فى الموت والحياة ، وساعده فى ذلك أنه ساق شعره فى ميادين الزهد والوعظ ، واتخذ من الموت أساسا لتنفير الناس من الحياة وبيان أن نعيمها لاقيمة له وكذلك كل ما يتصل بها ، فالمنية تغدو على الناس وتروح ، وكل سيموت ، ولو عُمِّرَ ماعمر نوح ، فالموت هو النهاية والغاية ، وهو الدائم المستمر ، أما الحياة فسرعان ما تنمحى وتزول ، ولا يبقى للإنسان إلا الصالحات . وهو يبدىء ويعيد فى أن الناس وقوف على هوة تحت أقدامهم ، وكل فرد يهوى فيها بدوره ، فلا يغرن أحدا الغرور ولاما يعيش فيه من ترف ونعيم ، فإن ذلك سرعان ما تذبل أزهاره ، وتتحطم صخوره أمام الموت الرهيب ، واسمعه يقول فى بعض مَن رثاهم :

لقد كنتُ أغدو إلى قَصْرِهِ ... وقد صِرْتُ أغدو إلى قَبْرِهِ
أتته المنيـــةُ مغتالةً ... رويداً ، تخلَّلُ من سِتْرِهِ
فلم تُغْنِ أجنـادُه حوله ... ولا المزمعون على نَصْرِهِ
وخلَّى القصـورَ لمن شادها ... وحَلَّ من القـبر فى قعرِهِ
وبُدِّل بالفَرْشِ بُسْطَ الثَّرَى ... وطيبَ نَدَى الأرض من عطرِهِ
وأصبح يُهْدَى إلى منزلٍ ... عميق تُؤُنِّقَ فى حَفْرِهِ
تُغَلَّق بالـتـرب أبوابُه ... إلى يوم يُؤْذن فى حَشْرِهِ
أشدُّ الجـاعةِ وَجْدًا به ... أشدُّ الجـاعة فى طَمْرِهِ(١)

وكأن المرثية تتحول عند أبى العتاهية إلى موعظة ، يتخذ فيها العبرة والمثل من

(١) الطمر : الدفن .

الموت ، فالناس وُلدوا للموت ، وكل ما يبنونه من قصور يؤول إلى خراب ، وكل مايتخذون من عز الدنيا يؤول إلى ذُلّ القبر ووحشته . وها نحن ندفن بأيدينا من نحبهم ، ونلقى بهم وراء التراب والأحجار ، ألا ما أحقر الدنيا وكل ما فيها من سرور المجد وأبهة الترف والنعيم ! . والحكيم من ذهب إلى ما يُريه العقل منها ومن نهايتها المحتومة لا إلى ما تريه العين من مباهجها الكاذبة ومفاتنها الخادعة .

وما يزال الشعراء بعد أبي العتاهية يشدّون في قيثارة شعرهم هذا الوتر حين يرثون ، حتى يطلع المتنبي فيضيف وترا جديدا وأنغاما جديدة ، وذلك أنه كان حانقا على الدهر ، لأنه لا يحقق له آماله ، وكانت آماله فوق أن تتحقق ، إذ طلب فيها طلب الملك والسيادة ، فغضب على الدنيا والزمان ، وذهب يهجوهما هجاء قبيحا في شعره . وأخذ نفسه بقراءة الفلسفة وما شاع عند العرب ومتفلسفيهم من حِكَم تتصل بالدهر وما يُرْمَى به الإنسان من سهام الزمن . فلوّن شعره بألوان فلسفية ، فيها الحكمة وفيها العبارة المنقولة عما قرأ ، ومن هنا اصطبغ رثاؤه بأصباغ لم تكن معهودة للعرب ، كقوله لسيف الدولة يعزيه عن أخته الصغرى :

وَلَذيذُ الحياة أنفسُ في النّفْـ ... ـسِ وأشهَى من أن يُمَلّ وأحْلَى

وإذا الشيخُ قال أفٍّ فما مـَـ ... ـلّ حياةً وإنما الضعفَ مَلّا

آلةُ العيش صِحّةٌ وشبابٌ ... فإذا وَلّيَا عن المرء وَلّى

أبداً تَسْتَرِدُّ ماتهب الدُّنيـَـ ... ـا فياليت جُودَها كان بُخْلا

فهو يقول إن ما تستلذه النفوس من الجانب المادى في الحياة يجعلها تستطيلها وتستديمها ولا تملها ، يشير بذلك كما يقول شارحوه إلى ما شاع عند الحكماء من أن النفس تتعلق بالهمم الترابية ، ولا تتعلق بالعالم العلوى إلا إذا شَفّتْ وصفَتْ من كَدَرها . وفي البيت الثانى يؤكد هذا المعنى ، فالشيخ لا يسأم الدنيا وإنما يسأم ضعفه وهرمه . والحياة إنما تطيب — كما يقول في البيت الثالث — بالشباب وصحة الجسم ، فإذا ذهبا عن الإنسان فسد عيشه . وفي البيت الرابع يردد حكمة معروفة وهى : الدنيا تطعم أولادها وتأكلهم . وعلى هذا النحو يربط شراحه دائما بين

شعره وبين الحكم التى كانت تروى لعهده عن المتفلسفة والحكماء ، ومن هنا نقول إنه أدخل على القيثارة العربية وتراً جديدا ، يسقط منه هذا النغم وما يماثله . ولعل أهم مراثيه التى يتضح فيها هذا الجانب مرثيته التى يعزّى بها عضد الدولة بن بُوَيه وقد ماتت عمته ، إذ يقول فى تضاعيفها :

نحن بنو المَوْتِ فما بالُنا نعافُ مالا بُدَّ من شُرْبِهِ
تَبْخَلُ أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هِىَ من كَسْبِهِ
فهذه الأرواح من جَوِّهِ وهذه الأجسامُ من تُرْبِهِ
لو فكّر العاشقُ فى مُنْتَهى حُسْنِ الذى يَسْبيه لم يَسْبِه
لم يُرَ قَرْنُ الشمس فى شَرْقِهِ فشكَّتِ الأنفسُ فى غَرْبِهِ (١)
يموتُ راعى الضَّأْن فى جهله مَوْتَةَ جالينوسَ فى طِبِّهِ
وربما زاد على عُمْرِهِ وزاد فى الأَمْنِ على سِرْبِهِ (٢)

وقد أشار السابقون إلى أن البيت الثانى منقول من قول بعض الحكماء . « إذا كان نشوء الأرواح من كرور الأيام ، فما لنا نعاف رجوعها إلى أماكنها » وكذلك البيت الثالث مأخوذ من قول أحد الحكماء : « اللطائف سماوية والكثائف أرضية وكل عنصر عائد إلى عنصره » يريد أن الإنسان مركب من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، والأول من الجو والهواء ، والثانى من الأرض والتراب ، وهو نفس ما جاء فى بيت المتنبى . وزعموا أن البيت الرابع مشتق من قول بعض الحكماء : « النظر فى عواقب الأشياء يزيد فى حقائقها ، والعشق عَمَى الحسّ عن درك رؤية المعشوق » .

والحقيقة أن الأبيات كلها يظهر عليها أثر القراءة فى كتب الفلسفة . ولا ريب فى أن المتنبى كان يقرؤها ، وقد كان الفارابى أحد خُلَطائه فى حضرة سيف الدولة ، ولا بد أنه قرأ كتبه ، كما قرأ لغيره من المتفلسفة ، ونقل عما قرأ هذا النقل

(١) قرن الشمس : أول ما يبدو منها .
(٢) السرب هنا : النفس والأولاد .

البديع ، فشتان بين العبارة الأصلية وما صارت إليه ، فقد أصبحت تلمع وتومض وكأنها النجم الثاقب ، إذ كانت للمتنبي مقدرة لا تبارَى فى الحشد والتركيز . وانظر إلى البيت الخامس الذى ركز فيه فكرة الفناء وأن حدوث الأشياء يقترن به زوالها ، فقد استعان بصورة قوية لخص فيها كل ما أراد بيانه فمن رأى الشمس طالعة عرف أنها لا بد غاربة . وركز فى البيت السادس فكرة أن الموت لا يسلم منه وضيع ولا شريف ولا جاهل ولا عاقل ولا طبيب ولا مطبوب ، وجالينوس طبيب وفيلسوف يونانى مشهور . وتوغل فى المعنى ساخرا ، فقال إن راعى الضأن ربما زاد على جالينوس عمرا ، وكان آمنا على نفسه وولده مع جهله وقلة عمله وعلمه .

وما يزال المتنبي يعرض مثل هذه الأفكار وأن الموت غاية كل حى ، وأن الدنيا ليست إلا طريقا إليه ، وأن كل إنسان بل كل ما فى الكون ينتهى إلى فساد . ويخلفه أبو العلاء فيجتمع عليه إحساسه الحزين بعاهته وفقد بصره ، وما قرأ فى كتب الفلاسفة عن التشاؤم والزهد فى الدنيا ، وما قرأه عند المتنبي من سخط على الحياة وذم شنيع لها . ويتحول كل ذلك فى قلبه إلى بركان ثائر لا يهدأ ولا يسكن أبدا ، بل ما يزال يلفظ بالحُمَم ، ولا يزال يتطاير شررها فى شعره . ومن أروع مراثيه قصيدته التى يرثى بها فقيها حنفيا ، وهى تتفجر منذ مطلعها بهذا السيل الحزين ، إذ يقول :

غيرُ مُجْدٍ فى مِلّتى واعتقادى ... نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِى[1]

وشبيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إذا قِيـ ... ـسَ بصَوْتِ البَشِير فى كل نادى

أبَكَتْ تلكُمُ الحمامةُ أم غَنَّـ ... ـتْ على فَرْعِ غُصْنِها المَيّادِ

صاحِ هذِى قبورُنا تملأ الرُّحْـ ... ـبَ فأين القبورُ من عهد عادِ[2]

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظن أديمَ الـ ... أرْضِ إلا من هذه الأجْسَادِ

---

(١) الشادى : المغنى .

(٢) عاد : من القبائل العربية القديمة التى بادت

وقبيحٌ بنا وإن قَدُم العهـ ـدُ هوانُ الآباء والأجدادِ
سِرْ إنِ اسطعتَ فى الهواء رُوَيْدًا لا اختيالاً على رفات العِباد[1]
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لحداً مرارًا ضاحكٍ من تزاحم الأضدادِ
ودَفين على بقايا دَفِينٍ فى طويل الأزمان والآباد
تَعَبٌ كلُّها الحيـاةُ فما أعْـ ـجَبُ إلا من راغبٍ فى ازديادِ
إنَّ حزنا فى ساعة الموت أضعا ف سرورٍ فى ساعة الميـلاد
خُلِق النـاسُ للبقاء فضلَّتْ أمةٌ يحسبونهـم للنَّفـادِ
إنما يُنْقَلون من دار أعما لٍ إلى دار شِقْوةٍ أو رشاد
ضجعةُ الموتِ رقدةٌ يَسْتريح الـ ـجِسْمُ فيها والعيشُ مثلُ السُّهادِ

فهو يقول إن نوح الباكى الحزين وغناء الشادى الفرح كلاهما لا يفيد الإنسان ولا يجديه نفعا فى هذه الحياة المظلمة البائسة الشقية ، وإنه ليسمع فيجد صوت الناعى الثاكل كصوت البشير المهنىء ، فالصوتان يتشابهان فى كل شىء ، وهذا الحمام طالما قال الشعراء إنه ينوح ، وأبو العلاء لا يستطيع أن يجزم بذلك ، فهو لا يدرى أينوح أم يغنى . إن الغناء والنواح جميعا يتشابهان عليه ، كما تتشابه الدنيا فى مسراتها وأحزانها ، فهى جميعاً تستوى وتتحد فى رأيه ، وتكوّن هذا الظلام المطبق الذى يضغط على أنفاسه .

ويلتفت إلى سامعه وقارئه ليريه أن الدنيا كلها ليست إلا جنازة قائمة ومقبرة كبيرة تمتد من أقدم العهود ، من عهد عاد إلى عهده ، وغاية الأمر أن كثيرا من أجزائها انمحت معالمه ، فنسير اليوم عليه غافلين ، وما أحرانا أن نسير هونا ، لأننا نسير على أديم مؤلف من أجساد الآباء والأجداد ، وأولى بنا أنْ نكرمه وأن لا نهينه حفظا لحقوق الأسلاف . ويسخر سخريته الرائعة من أن اللحد الواحد قد يضم أشخاصا متباينين بين صالح وطالح وجاهل وعالم وغنى وفقير ، حتى إن اللحد نفسه ليضحك ويعجب من اجتماع الأخيار والأشرار فيه .

(١) الرفات : العظام البالية .

وواضح أن الأبيات تحمل تشاؤمَ أبى العلاء وشكَّه فى الخير والشر وازدراءه للدنيا وكل ما فيها . وبعد أن بلغ بنا هذا المبلغ من السخط عليها لما تحمل من شقاء الإنسان وعذابه أخذ يعجب لمن يرغب فيها مع كل هذا الأذى ومن يريد أن تطول مدته فيها مع كل هذه التعاسة . وقارنَ بين السرور فى الميلاد والحزن فى الموت فوجد الثانى يزيد الأول أضعافا مضاعفة ، وما الحياة كلها فى رأيه إلا سجون من الحزن والضيق وغياهب من الألم والعذاب .

واطمأنت نفسه بعض الاطمئنان ، فتحدث عن بقاء الإنسان بعد الموت ، فقرر خلوده ، وردّ قول من يقول بالفناء ومن ينكرون البعث والحساب والنعيم والجحيم والجنة والنار ، فالناس خُلقوا للأبد وللبقاء دون الفناء ، وما الموت إلا انتقال من دار إلى دار ، هى دار الخلود التى فيها يعذَّب الجانى الشقى وينعم الراشد السعيد . وانتهى فى البيت الأخير إلى تشبيه الحياة باليقظة والموت بالنوم ، وكأنه يفضل الموت على الحياة ، فالعين ترتاح إلى النوم ولا ترتاح إلى السهد ، بل تشقى به وتتعذب .

وهذه الأفكار والمعانى الدائرة حول الحياة والموت والخلود التى تناولها أبو العتاهية والمتنبى وأبو العلاء تعلّق بها شعراء الرثاء فى الأقطار الإسلامية المختلفة ، فأينما وليت وجهك رأيت أسرابا منها فى رثاء الشعراء ، إذ أعجبوا بها إعجابا لا حد له ، فذهبوا يطوفون حولها ، ويتشبثون بها ، ويستوردون فى أشعارهم منها ، وخاصة من المتنبى وأبى العلاء ، فقد عَنَتْ لهما وجوه الشعراء على مر العصور ، وأصبحا المورد الذى لا ينفد ، والكنز الذى لا يفنى .

وممن أفاد منهما لعصرنا فى مراثيه شوقى ، فإنه عُنى بقراءة شعرهما ، والاحتذاء على مثاله ، فى كل ما نظم وصاغ من قصيد . وعاش يقلد المتنبى خاصة فى حكمه وكثرة ما ينثر منها فى شعره .

وقد نقل ظاهراً من أفكار أبى العلاء ، وإن لم يكن له تشاؤمه ولا بؤسه ، ولكن ما يزال يعنى بتقليده ونقل بعض أفكاره ، واقرأ له هذه المقدمة فى رثاء جدته :

خُلِقْنا للحياة وللمماتِ ... ومن هذين كلُّ الحادثاتِ

ومن يُولَدْ يَعِشْ ويمتْ كأنْ لم ... يمرّ خيالُه بالكائناتِ

ومَهْدُ المرء فى أيدى الرَّواقى ... كنعش المرء بين النائحاتِ (١)

وما سَلِمَ الوليدُ من اشتكاء ... فهل يخلو المعمَّرُ من أذاةِ

هى الدنيا قتالٌ نحن فيه ... مقاصدُ للحسام وللقَنـاةِ

وكلُّ الناس مدفوعٌ إليـه ... كما دُفِـع الجبان إلى الثباتِ

نُرَوَّع ما نروَّع ثم نُرْمَى ... بسَهْمٍ من يَدِ المقدور آتِ

وتستطيع أن تلاحظ المشابهة بين هذه الأبيات وبعض أبيات أبى العلاء السابقة ، ولكنه إنما يتناول ظاهرا منها ، لأنه لم يكن عميق الفكر مثله ، ولا كان له فلسفته ولا بؤسه النفسى . وقد ذهب يكثر — على شاكلة المتنبى — من الحكم ، ومن طريف ما جاء به منها فى مراثيه قوله فى مرثية محمد فريد التى صاغها صياغة على نمط مرثية أبى العلاء السابقة :

كرةُ الأرض كم رمَتْ صَوْلَجَانًا ... وطوتْ من ملاعبٍ وجيادِ

والغبارُ الذى على صفحتيهـا ... دوَرانُ الرَّحَى على الأجساد

ويقول فى رثاء مصطفى كامل :

دقَّاتُ قَلْبِ المرء قائلةٌ له ... إن الحيـاة دقائقٌ وثوانى

فارْفَعْ لنفسك بعد موتك ذكْرَها ... فالذِّكْرُ للإنسان عُمْرٌ ثانى

ولكن هذه الحكم وما يشبهها عنده ليست ثمرة غضب على الحياة ولا زهد فيها ، وهى لذلك لا تكون لها روعتها عند الشعراء الثلاثة السابقين ، فقد كان المتنبى برما ساخطا على الحياة بل ثائرا ثورة عنيفة ، ولذلك كان ذمه فيها طبيعياً ، وكذلك ذمُّ أبى العتاهية وأبى العلاء ، إذ كانا رافضين لها زاهدين فيها زهدا حقيقيا ، فطبيعى أن يشوهوها وأن يقبحوها وأن لا يروا منها إلا الجانب

(١) الرواقى : الأمهات تعلق التعاويذ والتمائم على أولادها .

الأسود البغيض ، أما شوقى فشيء من ذلك كله لم يكن كامنا فى نفسه ، ولذلك يبدو فيه التكلف والتصنع وأن الأفكار لا تنبع من قلبه ، ولا تجرى من داخله ، ولولا مهارته الموسيقية وإبداعه الفنى لبان عجزه وضعفه وتكلفه .

وربما كان نسيب عريضة الشاعر المهجرى أهم المعاصرين تعبيرا فى رثائه عن الخلود ، فله مراث فى أخيه ، بكاه فيها ، وليس هذا ما يهمنا ، إنما يهمنا أنه وقف عند فكرة الصراع بين الجسد والروح وأطال الوقوف نافذا إلى فكرة الخلود . وخير ما يصور ذلك مرثيته «ذكرى الغريب» وهو يفتتحها على هذه الشاكلة :

غريبٌ على البـاب يرجو الدخولا ... أثار النوى فيه شوقاً طويلا
ألا أدْخِلوهُ أُهَيْلَ الخـلودِ ... إليكم ولا تَحْرموه مَقيـلا(١)
قضى العمرَ فى التِّيه فى القَفر حتى ... نَفَتْه الحيـاةُ فألقى السبيلا
وأبصر أنواركم فى اشتعـالٍ ... فسـار إليهـا يروم الوصولا
أُهَيْلَ الخلود افتحوا فهو منكم ... وهيهات عن بابكم أن يميلا
تغرّب فى الأرض عمراً قصيراً ... ولم يك فى النـاس إلا دخيلا
تخلّص لا آسِفًا من حِمامٍ ... وحطّمَ أشراكهـم والـكبولا
وأغفل فى الأرض أهلا ورَبْعًا ... وألقى رداء التراب الثقيـلا

والمرثية طويلة ، وهى تدور كلها حول المعانى التى نراها هنا ، فأخوه قد اغترب حقبة من الزمن فى الأرض ، وكأنه كان فى تيه أو فى قَفْر ، ومع ذلك كان لا يزال يرقب أنوار الخلود ، ويتوجه إليها مصعداً فى الدَّرْب ، وما زال يرقى على الدَّرج حتى قرع الباب يريد الدخول والوصول . وها هو ذا قد وصل بعد نأيه واغترابه وبعد أن تخلص من سور التراب وأشراكه . ولاريب فى أننا نستشف هنا نزعة صوفية ، وهى تتغلغل فى شعر نسيب ، وتجعل لرثائه صورة روحية جديدة فى شعرنا ، تخالف الصورة التى رأيناها عند الشعراء السابقين .

---

(١) المقيل : المكان الذى نستريح فيه وقت القيلولة .

الفهرست

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

* العصر الجاهلى
الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامى
الطبعة العاشرة ٤٦١ صفحة
* العصر العباسى الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسى الثانى
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
* عصر الدول والإمارات (١)
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
* عصر الدول والإمارات (٢)
مصر - الشام
الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
* دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
* شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة
* الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
* البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة
* الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
* البحث الأدبى : طبيعته - ومناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

* فى النقد الأدبى
الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
* فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
* المدارس النحوية
الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
* تجديد النحو
الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
* تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

* ابن زيدون
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٣٠١٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٩٩٠-٨	ISBN

١ / ٨٧ / ٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون .